ميثاق الرابطة

لسان رابطة علماء المغرب

أسبوعية جامعة تصدر كل جمعة - الثمن : 3 دراهم

السنة 39 - العدد 1112 - الجمعة 13 ربيع الأول 1426 هـ - الموافق 22 أبريل 2005

بسم الله الرحمن الرحيم

ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن

صدق الله العظيم

في إرقاع الصلاة

محبة النبي ﷺ دليل الإيمان

تشريع الإسلام نعمة لإصلاح نفوس البشر

من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه

مولده عليه الصلاة والسلام

يستعد الشعب المغربي وغيره من شعوب العالم الإسلامي والمسلمون على العموم بالاحتفاء بإطلالة شهر مولده الشريف تعبيرا من الكل عن محبته عليه الصلاة والسلام، إذ لا يتم إيمان المسلم حتى يكون سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه، ومن المعلوم أن محبته عليه الصلاة والسلام هي في اتباع ما جاء به، وما أحوج المسلمين إلى تطبيق ما يدعو إليه من محاربة الجهل ونشر الإيخاء والمحبة والألفة بين بني الإنسان واستنهاض همم الكل للتوجه إلى الإيمان الصحيح الذي ينشر الرفق ويدعو للمساواة وينصح بامتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) فالله (يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر).

****

إن التحلي بالتربية الإسلامية الصحيحة والوقوف عند حدود الله ورسوله هما علاج ما أصاب الإنسانية من أوبئة الميوعة والتفسخ الأخلاقي اللذين استشرى مرضهما في الإنسانية في عصرنا هذا وصارت الأخلاق الحميدة تعيش أزمة خانقة مما حتم ويحتم على المصلحين الواعين الداعين إلى الله بالتي هي أحسن أن يستقبلوا عيد مولده صلى الله عليه وسلم بنشر أخلاقه الحميدة ودعوته الإصلاحية وسيرته النبوية منذ مبعثه صلى الله عليه وسلم إلى أن اختاره الله للرفيق الأعلى لما في هذا العمل الرباني من خدمة للإنسانية التي تعاني من تشكيك في علاج الدين لمشاكل الإنسانية... إن هذه المرحلة الدقيقة التي يمر بها العالم والحيرة البارزة التي أصابت الإنسانية وما يضمره الغيب في مكنونه من مفاجآت لا يمكن التنبؤ عنها تستدعي العمل على صرف الهمم في النصح الواعي والتوجيه السليم لفصيلة الإنسانية التي هي الآن في أمس الحاجة للعيش في هدوء وأمن واستقرار.

****

كما أنها في حاجة إلى إيمان صادق يحصن النفس من المزالق التي تضربها في دينها ودنياها.

إن الاحتفاء بمولده عليه الصلاة والسلام هو سلوك سبيله النقية الطاهرة الإنسانية الإصلاحية في السلوك والعمل والصبر عند الشدائد وعدم الكراهية لأي مخلوق في المظهر والمخبر لأنه المربي الكامل.

وتحكي لنا كتب السيرة أن الطائف كانت تلي مكة في الأهمية واتساع العمران ونقل القرآن مقالة الخصوم من قريش فقال: "وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم" سورة: الزخرف، الآية: 31.

وكانت الطائف مستقر عبادة – اللات – أحد الأصنام الذي كان يعبد آنذاك ويحج إليه كما كان يعبد صنم – هبل – بمكة عند قريش.

****

وقد قدم الرسول صلى الله عليه وسلم على الطائف لنشر الدعوة ونصح ساكنته وتوجيههم بالحكمة والموعظة الحسنة فكان رد أهل الطائف عنيفا، وكان ما عانى منه في الطائف أشد ما لقي من المشركين، فلما عمد إلى أشراف ثقيف وسادتهم استهزءوا به صلى الله عليه وسلم وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ويرجمونه بالحجارة، فتوجه صلى الله عليه وسلم إلى ظل نخلة وهو مكروب فجلس عليه واصطف له أهل الطائف صفين على طريقه فلما مر بهم تحاملوا عليه يرمونه بالحجارة حتى أدموا رجليه وفاض قلبه ولسانه صلى الله عليه وسلم بدعاء شكا فيه إلى الله ضعف قوته وقلة حيلته وهوانه على الناس واستعاذ بالله تعالى وطلب منه نصره وتأييده قائلا: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتهجمني أم إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو تحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولك الشكر بعد الرضى ولا حول ولا قوة إلا بالله) فأرسل الله إليه ملك الجبال يستأذنه في أن يطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئا) رواه مسلم في صحيحه.

****

ولما رآه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وما لقي تحركت فيهما المروءة فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له (عداس) فقال له: خذ قطفا من العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له أن يأكل منه، ففعل عداس وأسلم بما سمع من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما رأى ولاحظ من أخلاقه الرحمانية... ضمنت جزءا من قصة ما لقيه عليه الصلاة والسلام في الطائف من أعداء الإسلام وما واجهه به مشاكسوه صلى الله عليه وسلم من الاستهزاء والتنكيل وما تحلى به المعصوم من الصبر والأخلاق الحميدة وكونه صلى الله عليه وسلم لم يؤثر فيه ذلك التصرف الوحشي ولا في طبعه المثالي ولم يصرفه صلى الله عليه وسلم ذلك العمل الأرعن عن أخلاقه الحميدة وعواطفه المملوءة بالرحمة بعباد الله والحنان عليهم...

****

هاهو صلى الله عليه وسلم يوحي ربه إليه بأنه سيعاقب أهل الطائف ويطبق عليهم الأخشبين فما كان منه عليه الصلاة والسلام إلا أن يرجو من ربه أن يعفو عنهم ولا يأخذهم بعملهم اللاإنساني عل الله يخرج من أصلابهم ذرية صالحة...

إنه التسامح في أسمى معانيه والترفع في أنبل مقاصده والعفو في أبهى صوره...

فاحتفاؤنا بمولده صلى الله عليه وسلم وإظهارنا لمحبته هما في اتباع سنته وإحياء ملته والتخلق بأخلاقه الرحمانية ونشر دعوته بالتي هي أحسن.

إن الاحتفاء بمولده صلى الله عليه وسلم احتفاء بإصلاح العقيدة واحتفاء بإعطاء المرأة ما تستحقه من كرامة وإكرام سواء كانت بنتا أو زوجة أو أما ُولهن مثل الذي عليهن بالمعروفُ وإنه فرح بما في ديننا الحنيف من قيم وعدل وإنصاف وإنه ابتهاج وسرور بمناسبة مولد منقذ البشرية من الشرك والضلال والتمادي في هضم حقوق الإنسان وممارسة شريعة الغاب وتكريم لذكرى بزوغ شمس من بعث ليتمم مكارم الأخلاق صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

****

رجاؤنا أن تعرف الإنسانية ما تدعو إليه رسالة من نحتفي بمولد ذكراه من إصلاح وما تنطوي عليه من عدل ومساواة ورحمة ولطف بعباد الله وما تحث عليه من أخوة وتآلف وحوار بناء يحترم الرأي والرأي الآخر وما تأمر به الدعاة والموجهين من التزام سبيل اليسر في توجيههم وعدم العسر والتبشير وعدم التنفير... (لن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه).

****

نرجو من الله جل وعلا أن يعيد هذه الذكرى المباركة والعيد المحبب على قلوب المسلمين على أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس ولد من نحتفي بعيد مولده صلى الله عليه وسلم وهو يرفل في رداء العز والتمكين مقرور العين بولي عهده سمو الأمير الجليل مولاي الحسن وبصنوه السعيد الأمير مولاي رشيد وبجميع أفراد الأمراء والأميرات إنه سميع مجيب.

كما نرجوه أن يقيل عثرات المسلمين في جميع جهات العالم وأن يهديهم على سلوك سبيل ما جاء به نبي الرحمة وشفيع الأمة حتى يكونوا قدوة صالحة للبشرية عامة، وندعوه أن ينشر السلم والمحبة والوئام في قلوب أبناء الإنسانية إنه ولي التوفيق.

بقلم الشيخ ماء العينين لارباس

التوجيهات الإسلامية في الحجة النبوية

-16-

مازالت وقفتنا مع الحجة النبوية مستمرة، ومتابعتنا لأنوارها المشرقة دائمة، ولايمكن أن نتصور يوما الابتعاد عنها وهي قد أضاءت لنا الطريق وفتحت لنا السبيل للعمل بما يرضي الله ورسوله.

****

لقد كان المسلمون في حاجة إلى تلك الوصية النبوية التي سجلها تاريخ الجمعة تسعة ذي الحجة في ختام العقد الأول من تاريخ المسلمين وهو العام العاشر للهجرة، ولن يتكرر ذلك المشهد، رسول الله صلى الله عليه وسلم يقف أمام مائة وعشرين ألف من المسلمين يوجههم في حياتهم للعمل الصالح ويبعدهم عن الشرور والخبائث ويثبتهم على الأصول الدائمة التي جاء بها الإسلام فتحيى صلاتهم وتطمئن قلوبهم ويسيروا على منهج واحد يرفع شأنهم ويحمي كرامتهم وجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المنهج في ثلاث كلمات: تقوى الله وطاعة ولي الأمر، ولزوم الجماعة، هذه المصابيح الثلاثة على ضوئها قامت الدولة الإسلامية وعلى منهجها انتشر الإسلام في الشرق والغرب ولولا الحرب التي يشنها خصوم الإسلام أصدقاء عرب الجاهلية في السلوك والتفكير لبلغ الإسلام إلى جميع القلوب البشرية التي بقيت على الفطرة.

****

وسنتابع الوصية النبوية مع بعض الشروح ولو أننا أشرنا إليها في الأحاديث السابقة مختصرة، وهي تشدنا إليها بقوة لأنها خلاصة المنهج الإسلامي في الحياة الاقتصادية، والاجتماعية والتشريعية والسلوكية.

في البداية نشير إلى منهج سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل الخطباء والوعاظ والمدرسين والمتكلمين إلى الناس في مسجد أو في ساحة أو في قاعة عمومية أو خاصة، إن هذا المنهج هو افتتاح الخطاب بحمد الله وشكره وطلب عونه ومغفرته، إذ لولا نعمة الله وعنايته بخلقه وبالمثقفين منهم بصفة خاصة ما اكتسبوا الطاقة على الخطاب والحديث إلى الناس ونشر العلم والمعرفة بينهم، فالذي علمهم وأكسبهم العقل والفكر والفؤاد والجنان وجعل منهم وعاظا وخطباء قادرين على التبليغ والبيان هو الله عز وجل فهو الذي فتح بصرهم وفتح بصيرتهم وعلمهم مالم يكونوا يعلمونه حتى صار منهم من يصعد المنبر ويتكلم ومنهم من يقف أمام وسائل الإعلام أو في الساحات العمومية ليشرح للناس أمرا يهمهم إيجابيا كان ليفعلوه أو سلبيا ليتركوه، فالذي هيأهم لهذا هو الله عز وجل، أفلا يستحق أن يحمد ويشكر في بداية الخطاب، وهذا هو الدرس الأول الذي نستمده من وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعسى أن يفيد خطباءنا ووعاظنا ومحاضرينا ودارسينا، وأن يكون القدوة الحسنة لهم في كلامه مع الغير ثم أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهادة بوحدانية الله عز وجل وأنه لاشريك له، وثلثها بإثبات أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، فمع الحمد والاستغفار يأتي الإعلان بوحدانية الله وصدق رسالة نبيه صلى الله عليه وسلم.

الأستاذ أحمد أفزاز

النائب الثاني للأمين العام - رئيس غرفة بالمجلس الأعلى شرقي

تتمة في الصفحة 2

تحتوي هذه الصحيفة على آيات قرآنية وأحاديث نبوية، المرجو صيانتها عن أي امتهان.

عالمات جليلات اشتهرن بالفقه والتضلع فيه

■ إعداد الأستاذ: عبد القادر العافية

الحلقة السادسة

■ في هذه الحلقة نتناول الحديث عن عالمتين مرموقتين شهرتا بالتخصص في علم الحديث النبوي، وكان لهما فيه باع طويل، ومشيخة متميزة، شهد لهما بها كبار علماء عصرهما، جمعتا بين القرن الثامن والتاسع، عصر ابن حجر والعراقي وغيرهما من أئمة علم الحديث.

أولاهما: العالمة الفاضلة الجليلة السيدة عائشة بنت محمد بن عبد الهادي ابن عبد الحميد، أم محمد القرشي، قال عنها مترجموها : سيدة المحدثين في عصرها بدمشق، وبها مولدها ووفاتها (816.723هـ)أخذت صحيح البخاري عن الحافظ الحجار، وصحيح مسلم عن الشرف عبد الله بن الحسن، ودرست علم السيرة النبوية على الشيخ عبد القادر بن الملوك، ولها مشيخة جمعت فيها بين علماء أجلاء وحفاظ كبار. قال عنها الحافظ شمس الدين السخاوي في كتابه: «الضوء اللامع»: "وعمرت حتى تفردت عن جل شيوخها بالسماع والإجازة في سائر الأفاق، وروت الكثير، وأخذ عنها الأئمة، سيما الرحالة، فأكثروا، وكانت سهلة في الإسماع، لينة الجانب، حدثنا عنها خلق، والرواة عنها الآن بالإجازة كثيرون" قال الصفدي: كانت أسند أهل الأرض في عصرها" ويقول السخاوي: إن شيخه ابن حجر أكثر من الأخذ عنها، وذكرها في معجم شيوخه، وترجم لها، وذكر أنها أجازت أولاده: زين خاتون، ورابعة، ومحمد، وقال إنها آخر من حدثت بالبخاري عاليا بالسماع.

ويقول السخاوي بعد ذلك: ومن الاتفاق العجيب أن ست الوزراء ابنة عمر ابن أسعد بن المنجا، كانت آخر من حدث من النساء عن ابن الزبيدي في الدنيا، وهذه ماتت سنة ست عشرة وسبعمائة، وزادت بأن لم يبق من الرجال أيضا ممن سمع على الحجار، رفيق ست الوزراء في الدنيا غيرها، وبين وفاتيهما مائة سنة سواء...."

فالسخاوي يشهد بتضلع النساء في علم الحديث، وباهتمامهن به، فالسيدة ست الوزراء كانت آخر من حدث من النساء عن الحافظ الزبيدي، وعائشة بنت محمد . موضوع حديثنا . آخر من سمع على الحافظ الحجار، وبين وفاتيهما مائة سنة بالتمام، ولكمال، وهي صدفة جديرة بالملاحظة، كانت من نصيب سيدتين عالمتين متخصصتين في الدراسات الحديثية.

ومثل هذه الشهادات، لها قيمتها عند المحدثين، لمالها من ثبوت اتصال السند عن الحفاظ المشهود لهم، والمسلم لهم من طرف علماء الحديث، وبذلك يكون آخر من سمع عنهم له مزيته، وخصوصيته، وقد أشار إلى ذلك السخاوي في بداية حديثه عنها حيث قال: وعمرت حتى تفردت عن جل شيوخها بالسماع، والإجازة في سائر الآفاق...

فالمحدثون في العالم الإسلامي كان يعرف بعضهم بعضا، ويعرفون من بلغ درجة الحفظ والضبط والإتقان، وكان طلاب العلم يقصدون من علت مرتبته في الحديث، ويفخرون بالأخذ عنه، لأن من خصوصية امتنا الإسلامية توثيق العلوم الشرعية باتصال سندها إلى كبار المتخصصين فيها، ولذلك كانت الرحلة في طلب العلم وأخذ الحديث عن أهله مما يتنافس فيه العلماء، والعالمات كذلك.

وكان الرحالة من العلماء المغاربة يبذلون الغالي والنفيس، وما فوق الطاقة من أجل الأخذ عن كبار المحدثين بمصر والشام، والحجاز، والعراق، وغيرها من البلاد، ولكل زمان أعلامه من الموهوبين المتخصصين، الذين يعتبرون حجة لمن أخذ عنهم، وكان طلاب العلم يفخرون بذلك، وبإجازتهم والسماع عنهم، والدرس عليهم، وكانت المرأة المسلمة عبر التاريخ تنافس الرجال في طلب العلم، مما جعل بعضهن يتميزن في علم الحديث، والفقه والأدب... ويفخر الشيوخ الكبار بالأخذ عنهن.

فالعلوم الشرعية هي ميراث النبوة، ولكل من الرجال والنساء نصيب فيه، وباب العلم مفتوح، لايفرق بين ذكر وأنثى، ولابين حر وعبد، ولابين عربي وعجمي، هو مفتوح في وجه الجميع من مريدي المعرفة والراغبين فيها.

ومترجمتنا هذه عائشة بنت محمد، وصلت إلى هذه الدرجة في المشيخة العلمية والتضلع في علوم الحديث، وأحرزت على الاعراف بحفظها ومكانتها... وصلت إلى ذلك بالمواظبة على أخذ العلم من أهله المتعمقين في الدراسة والاطلاع، فقائمة شيوخها الذين أخذت عنهم قائمة طويلة، من ضمنها العالمة الجليلة الشيخة المحدثة ست الفقهاء ابنة الواسطي، وغيرها، وذكر ابن حجر والسخاوي مجموعة من شيوخها الذين شهدوا لها بجودة الأخذ والسماع، والضبط والإتقان، ويكفيها فخرا أن يكون الحافظ ابن حجر من الذين أكثروا من الأخذ عنها، وحظي منها بالإجازة لأولاده، كما صرح بذلك تلميذه السخاوي، ولايعرف الفضل إلا ذووه، ورحم الله الجميع.

ومادام الحديث قد انجر بنا إلى ذكر الحافظ ابن حجر، وبعض أفراد أسرته، فمن المناسب جدا أن نتحدث عن زوجه العالمة الفاضلة السيدة "أنس" بنت القاضي كريم االدين عبد الكريم، قال عنها السخاوي في الضوء اللامع: أنس ابنة عبد الكريم بن أحمد بن عبد العزيز... أم الكرم، ابنة الكريمي اللخمي النستراوي الأصل القاهري، زوج شيخنا . يعني ابن حجر. ويعرف أبوها بابن عبد العزيز، وأمها سارة بنت ناصر الدين... ولدت سنة ثمانين وسبعمائة، أسمعها شيخنا من شيخه العراقي الحديث المسلسل، وكذا من الشرف، والكويك، مع ختم صحيح البخاري، وأجاز لها أبو هريرة ابن الذهبي، وأبو الخير ابن العلائي وخلق . أي جماعة من العلماء . وحجت صحبة زوجها، ثم بمفردها، في حياته، وجاورت حينئذ، وحدثت بحضور شيخنا وبعده، قرأ عليها الفضلاء، وكانت تحتفل بذلك، وتكرم الجماعة غالبا، أي تكرم طلبة العلم الذين يأخذون عنها، وممن تتلمذ عليها وأخذ عنها الحافظ تلميذ زوجها ابن حجر، شمس الدين السخاوي الذي قال معترفا بمشيختها، وخرجت لها أربعين حديثا عن أربعين شيخا، قراتها عليها بحضوره، أي بحضور شيخه زوجها، وحملت عنها أشياء، وكانت رئيسة دينة كريمة راغبة في الخير، مجابة الدعاء، ويقال إنها رأت ليلة القدر، ولم تتزوج غير شيخنا، ماتت في ربيع الأول سنة سبع وستين وثمانمائة هـ".

نرى السخاوي في حديث عن السيدة أنس زوج شيخه ابن حجر، نراه يقدر علمها وفضلها وكرمها، وأخلاقها وتدينها، فهي من العالمات العابدات الكريمات، محبة للخير حريصة على فعله مع طلبتها وغيرهم، ولصلاحها، وتقواها، أكرمها الله تعالى برؤية ليلة القدر، وهذا من الخصوصيات التي يكرم بها الله سبحانه من يشاء من عباده المتقين، وذكر أنها كانت تجاور بعد حجها طلبا لرضى الله تعالى وأجره وثوابه.

ومن خلال ترجمتها، وترجمة أختها آمنة، وزوجها وأسرته، ندرك أننا أمام أسرة علمية نساء ورجالا، أسرة بلغت بمجموع أفرادها شأوا بعيدا في علم الحديث، وعلوم الشريعة الإسلامية، ولقد خصها السخاوي بحديث طويل في كتابه الجواهر، الذي ترجم فيه ترجمة موسعة لشيخه ابن حجر العسقلاني، وذكر فيه زوجه أنس وغيرها من أفراد أسرة شيخه.

فالسيدة أنس من العالمات العاملات، عاشت عمرها الطويل 87 سنة في جو علمي محض: دراسة، وتدريس، وبحث واطلاع، واهتمام بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجوامع كلمه، وهديه ووهج نوره، والتأسي بأخلاقه وشمائله صلى الله عليه وسلم.

في هذا الجو العبق بأريج النبوة عاشت مترجمتنا أنس رحمها الله ورضي عنها، إلى أن لقيت ربها راضية مرضية.

(تتمة ص1)

هذه قضية افتتاح الخطاب أما الختام فكان جملة أخرى دلالتها مع الإنسان موجودة وآثارها في حياته مستمرة إنها جملة "والسلام عليكم" أولا "ورحمة الله" ثانيا "وبركاته"ثالثا" وكل مسلم ينتهي من خطابه عليه أن يقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم فيحول ساحة المستمعين إلى ساحة سلام ورحمة من الله وبركة، ومن ختم مسيرته الكلامية بالسلام والرحمة والبركة فقد جمع كل الخيرات والحسنات بنعمة من الله عز وجل وهذا توجيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم نزد فيه شيئا و لم ننقص منه شيئا ندعو الله عز وجل أن يجعله دائما وأبدا أمام بصرنا وبصيرتنا بتوفيق منه تعالى.

وفي الفقرة الثانية من الخطاب مسك رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس المستمعين من قلوبهم وأفئدتهم وأبلغهم أن يكون اهتمامهم بما يقوله على قدر الموقف الزماني والمكاني، ولعلي لا ألقاكم بهذا الموقف أبدا في عام آخر" إنها إشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن الإنسان لايعلم في شؤون الحياة شيئا وإن مايأتي به الغد لايعلمه إلا الله إن مناسبة الحج لاتتكرر إلا مرة في السنة ولا أحد يضمن لنفسه أن يعيش سنة وأن يكتب له الحضور إلى موقع عرفات المكان الذي جعل الله ترابه وأحجاره مما لايوجد في بقعة أخرى من الأرض، وخصوصا في ذلك اليوم وفي تلك الساعة، وبحضور أحب خلق الله إلى الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أنا أتصور أن بعض الصحابة والصحابيات أدركوا جميعا معنى الجماعة بأبعادها الدنيوية والأخروية "لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا" رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم مالا نعلم نحن، فهل جعل من الخطاب خطاب وداع، إنه حقيقة كان خطاب وداع لأصحابه ولأهله وللمسلمين جميعا الذين حضروا للحج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لعل الله أطلعه على الغيب وعلى أجله وهي خصوصية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فوضع الخبر في خطابه ليعلم به من يرافق رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتخذما يجب عند ساعة الحقيقة، وقد سجلت لنا كتب السيرة موقف سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما بلغه خبر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد رفض الخبر ولم يستطع سماعه وتقبله، إن الفترة الزمانية التي مرت على الوصية النبوية بعرفات لم تكمل المائة يوم وهي ثلاثة وتسعين يوما بالضبط بين الخطاب والوفاة، والخطاب مازال رنينه ومازالت جمله على الصدر للتفكر فيها وفهم ماتعنيه، ولكن إحدى تلك الوصايا تنتقل حقيقتها بين المسلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفاه الله "لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا"وهنا نقرأ مع أبي بكر الصديق قول الله تعالى "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل" رحمك الله ياصاحب حجة الوداع وحجة البلاغ ولعل هذه الوقفة كانت واجبة مع الفقرة التي ودع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه. فرحمه الله وجعلنا من رفاقه عند الحوض في الجنة إن شاء الله وإلى العدد المقبل إن شاء الله.

الوثاق

أحكام التحقيق بأحكام التعليق

إعداد وتقديم الأستاذ : إدريس كـرم

الحلقة الثانية

جمع العبد الفقير الى الله سبحانه محمد المدعو بدر الدين بن يحيى القرافي المالكي من ذرية العارف بالله ابن ابي جمرة رحمه الله ونفعنا به.

****

الحمد لله الذي أمر عباده المومنين بالوفاء بالعقود، وحض على حفظ المواثيق والعهود، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب اللواء المعقود وعلى آله وأصحابه ذوي المآثر والجود، إلى اليوم المشهود، وبعد

..وقال ابن عرفة في فصل الزوج على شروط عن ابن رشد ما نصه، إن قال إن نكحت عليك فأمرك بيدك، ولم يقل إلا بإذنك، فأرادت القضاء في نفسها بعد أن نكح بإذنها، فسمع أصبغ أشهب لها ذلك، وقاله سحنون في المجموعة، واحتج بمن سلم شفعته قبل الشراء، والمشهور ليس لها ذلك، وقال أصبغ في سماعه، روايته عنه، وقاله ملك في رسم اغتسل من هذا السماع، وسمعه عيسى في كتاب التخيير انتهى كلام ابن عرفة.

****

وهو صريح في رجوعها بعد أن نكح وهو مبني على المعنى لا على اللفظ، وقال شيخ شيوخنا العلامة ناصر الدين اللقاني في حاشيته على التوضي حسبما نقلته من خطه، بعد أن نقل كلام ابن عرفة هذا ما نصه،

****

فقوله والمشهور يشكل به في قول الشارح في مختصره وهوالشيخ خليل، أو أسقطت شرطا قبل وجوبه انتهى، لكن حكى ابن غازي لفظ العلامة الشيخ خليل فرضا لا شرطا، وادعى أنه وقع في بعض النسخ كذلك، فتدبره، وأما لو رجعت قبل أن تنكح ففي المتيطية فيما إذا جعل أمر الداخلة بيد هذه الزوجة، قال فيها،

****

فصل ويكون لها أن تأذن له في فعل ذلك وفي كل ما جعل فيه أمرها بيدها، قال في الواضحة فإن رجعت قبل أن يفعل، كان ذلك لها، قال فضل وابن القاسم لا يرى لها رجوعا، ورواه ابن وهب عن مالك، وقال أشهب في كتاب محمد، إذنها قبل أن ينكح، ليس بإذن، لأنها قبل أن يصير القضاء بيدها في النكاح، ولها الرجوع، وتقضي إذا نكح، وحكاه ابن حبيب في الواضحة، وقاله سحنون، قال بعض الموثقين وهو أشبه بأصول المدونة، وقال المتيطي فإذا أسقطت الزوجة الشرط لزوجها، ووضعت عنه ذلك، نفذ ذلك له على ما تقدم من قول مالك وابن القاسم انتهى،

****

وقال شيخ شيوخنا اللقاني في حاشيته بعد أن نقل كلام المتيطي هذا ما نصه: والظاهر أن الراجح عنده هو قول مالك وابن القاسم، فيما إذا قامت قبل أو بعد انتهى، وسياتي له إفتاء في هذا المعنى في الخاتمة، ثم إن كلام ابن رشد فيما إذا كان تعليق الطلاق مقيدا برضاها، كما هو صريح كلامه، أما إذا لم يكن مقيدا بما ذكر كما إذا قال إن فعلت كذا فضرتك طالق، وسريتي حرة، وفعل فليس له هذا الحكم، وهو الإسقاط، وقد أشار إلى ذلك العلامة خليل مفهوما بقوله له إلا أن تسقط ما تقرر بعد العقد بلا يمين،

وأما التعليق على متعدد ففي المدونة وإن حلف لا يأكل خبزا أو زيتا ولا يفعل ففعل أحدهما حنث انتهى، قال المشدالي في حاشية المدونة في قولها في كتاب النكاح الأول: فإن أتى شيئا من ذلك إلى آخره قال المتيطي وقولنا: فإن فعل شيئا من ذلك هو الصواب لقول ابن العطار وغيره من الموثقين.

****

الحنث في الايمان يقع بفعل البعض:

إذا قال العاقد فإن ذلك، ولم يقل شيئا من ذلك، ففعل فعلا واحدا في الجملة ما كان له الأخذ بشرطها، وانتقد ذلك عليه ابن الفخار وغيره، وقالوا الحكم في ذلك سواء، وللمرأة الأخذ بشرطها إذا فعل واحدا من الجملة في الوجهين جميعا، لأن الحنث في الأيمان يقع بفعل البعض، كمن حلف أن لا يفعل فعلين ففعل أحدهما، أو لا يأكل شيئا فأكل أحدهما قال محمد بن عمر وقد قال الله تعالى: "ومن يفعل ذلك يلق آثاما" والفاعل يستوجب العقاب بفعل البعض، كما يستوجبه بفعل الجميع، فكذلك المرأة تستوجب الأخذ بشرطها لا بفعل أحد الضررين، كما تستوجبه بهما معا، لأن التمليك يمين بالطلاق، وقد قال مالك فيمن حلف بطلاق امرأته لا أكل هذا الرغيف كله، فأكل بعضه، فقد حنث ولا ينفعه قوله كله بسبب يمينه بالطلاق، قال الباجي في وثائقه، وقد رأيت في الوثائق القديمة أن ابن لبابة وابن أبي زمنين وغيرهما لا يذكرون فيهما شيئا من ذلك، وإنما أحدثه الفقهاء آخرا، لأنه ربما قال الزوج إنما طلقت بالشرط، على أن لا يكون لها قيام، إلا إن فعلت الجميع، ومذهب ابن القاسم حلف على فعل غيره، أو زوجته، إن دخلت هاتين الدارين، فدخلت واحدة أنه يحنث، إلا أن يريد حتى تدخلها جميعا، وخالفه غيره، وقال لا يحنث إلا بدخولهما معا، فقطع الاختلاف أحسن،

****

قال بعض الموثقين أما إذا انعقد النكاح على تلك الشروط، فالحكم في ذلك سواء ولا يصدق الزوج في نيته، كما قال ابن الفخار، لأن الأيمان عند ابن القاسم إذا كانت في حق ووثيقة، إنما هي على نية المستحلف، وعلى أشد الوجوه، وأما إن طاع بها فيفترق الوجهان عندي، ويصدق الزوج في دعواه، أنه إنما نوى أنها لا تأخذ بشرطها إلا أن فعل الجملة، ويحلف على ذلك لأن ما يدعيه يحتمل في ظاهر اللفظ، وفي مثل هذا ينوي الحالف بالطلاق، وإن كانت على يمينه بنية، وإن ادعى نية الحالف تخالف على ظاهر اللفظ لما صدق، وإن كانت على يمينه بينة، قال هكذا قيدته عن بعض شيوخنا، ابن الفخار، ولا فرق بين الوجهين، دليله قوله تعالى: "ومن يفعل" قلت هذا غير صحيح لأن تلك الأشياء ذكرت في طريق السلب، فانتفت الفردية، فلا يتقرر إلا ذلك لا من ذلك وإنما يحسن ما قال لو ذكرت بواو الجمع، وإن سلمنا أن الإشارة راجعة للكل والبعض، فاستوى الحكم في العقوبة بين البعض والكل التسوية في فعل المكلف، لأن من حجة الزوج أن يقول لم التزم ذلك إلا على فعل المجموع، وهو غرض صحيح، وذلك لمن انصف انتهى، نقل المشدالي،

****

الخيار ببعض الشروط

قلت لم ينبه على ترجيح التفصيل في كلام بعض الموثقين أو ضعفه، وعبارة العلامة خليل في مختصره، ولها الخيار ببعض شروط، ولو لم يقل إن فعلت شيئا منها، وهي تفيد أن ذلك في الشرط لقوله شروط، لا في الطوع، ثم إن محل الخلاف كما علمت، إذا قال إن فعلت ذلك لا إن قال إن فعلت شيئا من ذلك، لأن قوله إن فعلت ذلك يتوهم منه عدم القيام بواحد منها، لعدم دلالة اللفظ على التبعيض، وهو ظاهر عبارة العلامة خليل التي مرت آنفا بقوله، ولو لم يقل لخ واستفيد من نقل المشدالي أن الأيمان عند ابن القاسم إذا كانت في حق أو وثيقة إنما هي على نية المستحلف وعلى أشد الوجوه فإن قلت قال المشدالي في كتاب العتق الأول من المدونة في قولها ومن قال لزوجتيه، او امتيه المسألة ما نصه النكتة الثانية أنه وقع في القاهرة فيمن طلبه إخوان ليسافر معهما إلى الحجاز فأنعم لهما فتوثقا منه بطلاق زوجته إن لم يسافر معهما إن سافرا ثم إنه سافر أحدهما هل يلزم شيء فوقعت الفتوى بأنه لا شيء عليه، وينوي في إرادته المعية كقوله هنا بجامع التعليق على متعدد، وصوب أخذه هذا غير واحد انتهى وفهم منه أنه إذا ادعى نية قوله، وينوي إلى آخره، وهو يخالف ما تقدم من التحنيث بالبعض، وأن المعلق على متعدد يقع بفعل واحد منه، قلنا لا مخالفة لأن هذه المسألة الواقعة من نوع المسائل التي قال فيها أهل بقبول قوله بها في الفتيا والقضاء، اعتبارا بنيته المعبر عنها عند التوهم بالنية الموافقة لظاهر اللفظ على أنه لو قال قائل لو أجريت المسألة الواقعة على مسألة الثوبين المذكورة في المدونة، وقيل بالحنث لما بعد، بل أقرب مما فاته هو عليها، وإن استشكلت مسألة الثوبين إذ الأشكال لا يرفع الحكم.

****

ونصها ومن حلف لا كسى امرأته هذين الثوبين ونيته لا كساها إياهما جميعا، فكساها أحدهما، حنث انتهى وعزاها العلامة خليل في مختصره للمدونة وزاد واستشكل وقوله بجامع التعليق إلى آخره، أي في المسألتين لا يطلق التعليق على متعدد لأن الحكم فيه الحنث، بواحد كما تقدم، قلت وقعت مسألة وهي أن إنسانا غير مازوج علق على نفسه كلما تزوج سعدى بنفسه أو وكيله، أو بفضولي، أو بوجه من الوجوه، أو بحكم حاكم شافعي، أو ظهرت في عصمته بطريق من الطرق تكون طالقا، وحكم بموجب ذلك حاكم مالكي، ولم يتعرض في وثيقة التعليق بمحلوف لها، ثم إنه تزوج سعدى الرجا فقام عليه قائم ثم بوقوع الطلاق عليه، فادعى أنه إنما علق ذلك بناء على أن يتزوج بامرأة تسمى ضحى، ولم يتيسر له تزويجها فحكم عليه بالفرقة بموجب التعليق، فنازع في ذلك، وتمسك بإفتاء بعض شيوخنا، بعدم وقوع الطلاق عليه، لقبول قوله في الفتيا والقضاء قياسا على مسألة ما عاشت، وكثر الجدال في ذلك، ثم رأيت ما يوافق الحكم بالتفريق حسبما يفهم من كلام ابن رشد الآتي، خلاف ما أفتى به بعض شيوخنا، بل المسألة الواقعة أحرى مما في ابن رشد، كما ستراه، وقد بين ابن المواز محل قبول قوله في الفتيا والقضاء في مسألة ليست واقعة الحال، كما ستراه،

****

النية ثلاثة أوجه:

فإنه قال الظاهر من قول مالك النية، على ثلاثة أوجه، منها ما تقبل نيته في الفتيا والقضاء، مثل أن يحلف لزوجته بطلاق من يتزوج في حياتها، أو يكون شرطا في أصل نكاحها، ثم تبين منه، ثم يتزوج ويقول نويت، ما كانت تحتي فيصدق انتهى، فقول من يتزوج في حياتها هي مسألة ما عاشت التي قاس عليها بعض شيوخنا وهي في المدونة قال فيها من قال كل امرأة أتزوجها ما عاشت فلانة لزم كانت فلانة تحته أم لا، فإن كانت تحته فطلقها، فإن نوى بقوله له ما عاشت مادامت تحتي فله نيته، وإن لم يكن له نية لم يتزوج ما لم يخش الحنث انتهى، قال ابن ناجي يريد مع اليمين في ذلك، ومسألة ابن رشد المستدل بها للواقعة هي قوله في أجوبته مجيبا عمن له مطلقة فتزوج امرأة أخرى، وكتب في صداقها متى راجع مطلقته فهي طالق، ولم يقل متى راجعها على فلانة ثم طلق التي تزوج أو ماتت، وأراد مراجعة الأولى، وقال لم يكن لي نية فيه، أو قال أردت مادامت الثانية زوجة بما نصه عقب عقب ما تقدم، لا يصدق فيما ادعاه من النية، إذا طلب بما أشهد به على نفسه، وله نيته فيما بينه وبين الله تعالى، ولا يتكرر عله انتهى كلامه، فجعله من النية المخالفة لظاهر اللفظ فواقعة السؤال بالنسبة لمسألته أحرى، وذلك أن مسألة ابن رشد وقع فيها أنه كتب في صداق بالزوجية عدم مراجعة المطلقة، وهو ظاهر في أنه إنما علق لأجلها، ومع ذلك لم يجعله بمنزلة مسألة ما عاشت السابقة عن المدونة، وواقعة السؤال ليس فيها زوجة أصلا، وما قاله ابن رشد لعله أخذه من مفهوم قول ابن المواز السابق، أو يكون شرطا في أصل نكاحها، ولا شرط هنا، وما قال المشدالي في كتاب الأيمان بالطلاق في قوله، كل امرأة أتزوجها عليك إلى قوله لأن قصد أن لا يجمع بينهما، قال في فيمن خطب امرأة وتحته أخرى، فقال لا أزوجك، حتى تجعل أمر امرأتك بيد صاحبتها، أو تطلقها فقال أشهدكم، إذا دخلت على صاحبتكم، فأمر التي تحتي بيدها، ثم صالح التي تحته ودخلت عليه المخطوبة، ثم يريد نكاح التي صالح، قال ذلك جائز ولا يلحقه فيها طلاق ابن رشد، هذا صحيح على ما يوجبه اللفظ وأما على ما يقتضيه المعنى، فيجب أن يكون أمرها بيدها لقوله هنا لأن قصده أن لا يجمع بينهما، أي المشدالي قال ويعني ابن عرفة في المختصر، نوقضت هذه المسألة بقولها من قال كل امرأة أتزوجها ما عاشت فلانة لزم ما كانت فلانة تحته أم لا، فإن كانت تحته فطلقها، فإن نوى بقوله ما عاشت مادامت تحتي فله نيته، وإن لم يكن له نية لم يتزوج، ما لم يخش العنت ويفرق بمخالفة دعوى النية ظاهر القصد، كل امرأة أتزوجها عليك وموافقته له فيما عاشت، وقول ابن ابراهيم قال ابن رشد معنى هذه أنه قامت عليه بينة فلم ينوه، وتلك لم تقم لا أذكره لابن رشد إلا في أجوبته فيمن له مطلقة فتزوج امرأة أخرى، وذكر مسألة الأجوبة التي ذكرناها دليلا للموافقة انتهى.

****

وظاهره قبول ما في أجوبة ابن رشد لسكوته عليه، وقد ذكر الشيخ بهرام في شرحه لشامله، مثالا لما قرره ابن رشد، ونصه في باب اليمين، والحاصل أن دعوى المعلق في الواقعة أنه إنما علق لأجل أن يتزوج ضحى، ولم يفعل أضعف من مسألة أجوبة ابن رشد، وحري بالحكم على ما يتبادر على أنه ليس في عينها نص لتساوي مسألة ما عاشت في قبول قوله مطلقا، كما أفتى به بعض شيوخنا، مع أن إلحاقها بمسألة ابن رشد أقرب، فيفرق بين الفتيا والقضاء.

****

الفصل الخامس في بطلان الحيلة في التعليق والتشديد في ذلك وفي التنبيه على ما يشعر بما بخالف ذلك، قال مالك في المدونة من قال لامرأته كل امرأة أتزوجها عليك، فهي طالق، فطلق المحلوف لها واحدة، وانقضت عدتها، ثم تزوج بالأجنبية ثم تزوج المحلوف لها عليها، أن الأجنبية تطلق عليه، ولا حجة له ان قال أنا تزوجتها على غيرها، ولم أنكح غيرها عليها، قال ولا أنوي الحالف في ذلك، لأن القصد لا يجمع بينهما هـ،

****

وفي المشدالي ما نصه فيمن حلف لطلاق كل امرأة يتزوجها مادام خليطا لأبيه، فترك مخالطته ثم تزوج، فأراد مخالطته، فقال لا تفعل، وكرهه واستثقله ابن رشد، ولم يحنث إن فعل، وينبغي أن يحنث لأنه إنما أراد أن يكون له زوجة، مادام خليطا لأبيه ليلا يعتقد أنه ارتفق بماله في النفقة على زوجته، على قوله في الكتاب في مسألة أن لا يجمع بينهما، أي لا يجمع بين زوجته وخلطة أبيه،

****

قلت قال في التهذيب في باب الخلع ما نصه، وإن قال لها إن لم أقض فلانا حقه، إلى وقت كذا، فأنت طالق، فلما جاء ذلك الوقت وخاف الحنث صالحها، فرارا من أن يقع عليه الطلاق، وذكره في كتاب الأيمان بالطلاق وقد روى ابن القاسم وابن وهب فيمن حلف بطلاق زوجته البتة، ليقضين فلانا حقه إلى أجل كذا، فياتي الأجل ولم يجد فخالع امرأته، ثم جاء الأجل بنكحها بعده فلا حنث عليه، واكره ما صنع، وقال ابن نافع وهو مكروه فيما بينه وبين الله تعالى،

****

قال في رسم أوصى من سماع عيسى من كتاب الأيمان بالطلاق الثلاث فيمن حلف بطلاق امرأته كل من يتزوج عليها البتة، ثم هاج بينهما كلام فقال لها إن لم أتزوج عليك إلى عشرة أشهر، فأنت طالق البتة، فقال ابن القاسم جاءتني، ونزلت فامرأته يصالحها، ويتركها حتى تمضي العشرة أشهر، فيقع عليه الحنث، وليست في ملكه ولا هي امرأته، إن لم يتزوجها بعد ذلك، إن شاء، وسقطت اليمين عنه ومضت، ابن رشد ولا نكره له الفرار من الحنث بهذا الفعل في هذه المسألة، إذ لو كان فيه وجه من وجوه الكراهة لما أمر به ابن القاسم وإنما قال مالك في مسألة ارخاء الستور من المدونة، وبيس ما صنع من فراره من الحنث، لأجل غريمه، إذ لو علم ذلك لقام عليه، ولم ينظره به انتهى،

****

فلو تزوج ولم يعلم المحلوف لها بتزوجه، حتى ماتت التي تزوجها، أو طلقها قال في الطرر ما نصه، انظر من شرط لزوجته أن لا يتزوج عليها، فإن تزوج فأمرها بيدها، فتزوج، ولم تعلم هي ذلك، حتى ماتت المتزوجة أو طلقها فإن لها أن تقضي في نفسها، لأن ذلك قد وجب لها بتزويجه عليها، فلا يسقطه طلاقها، ولا موتها، واختلف إذا شرط لها أن يكون أمر الداخلة عليها بيدها، فقال ابن سحنون إن كان الطلاق بائنا فلا حكم لها في ذلك وإن كان غير بائن فلها ذلك، وقول سحنون مفسر لقول ابن الماجشون، فالاختلاف إنما هو في الطلاق البائن انتهى.....

في ظلال الحديث

الحديث الثلاثون والمائة: محبة النبي الأكرم دليل الإيمان

■ إعداد الأستاذ: عبد الله بوغوتة

نص الحديث:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده" رواه البخاري ومسلم.

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان (13) ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله أكثر من الأهل والولد والوالد (63) والنسائي في سننه، كتاب الإيمان وشرائعه، باب علامة الإيمان، (4927و4928و7929)وابن ماجة في سننه، في كتاب المقدمة باب في الإيمان(66)، وأحمد في مسنده، باقي مسند المكثرين، مسند أنس بن مالك(12349)والدارمي في سننه، كتاب الرقاق، باب لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه (2624)...

درجة الحديث:

حديث صحيح، وسنده من أجود الأسانيد.

سند الحديث:

هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه، وقال: حدثنا أبو اليمان قال أخبرنا شعيب قال حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه، وذكر الحديث وهذه تعريفات موجزة بالرواة:

حدثنا أبو اليمان: هو أبو اليمان الحكم بن نافع البهراني الحمصي الحافظ أحد الأئمة من كبار تبع الأتباع، مشهور بكنيته، كان من نبلاء الثقات وحديثه في الكتب كلها استقمده المأمون ليوليه قضاء حمس، وقال أبو حاتم: ثقة نبيل، وقال أبو زرعة: لم يسمع من شعيب إلا حديثا واحدا والباقي إجازة، قال أحمد: احتج بها صاحبا الصحيحين لثقته وإتقانه، كان مولده سنة138 بالشام، وتوفي سنة 221 في ذي الحجة بحمص.

قال أخبرنا شعيب: هو أبو بشر شعيب بن أبي حمزة الإمام الحجة المتقن الأموي مولاهم الحمصي الكاتب، قال بن الجنيد سمعت يحيى يقول شعيب بن أبي حمزة من أثبت الناس في الزهري. وقال أحمد بن حنبل: ثبت صالح الحديث، وقال أحمد بن عبد الله العجلي ويعقوب بن شيبة وأبو حازم والنسائي: ثقة، مات سنة 163، وقال علي بن عياش كان قويا قد جاز السبعين روى له الجماعة.

قال حدثنا أبو الزناد: هو أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن ذكوان المدني، مولى بني أمية، المعروف بأبي الزناد وهو لقبه، وكان يغضب منه، أحد الأئمة روى عن ابن عمر وأنس وسعيد بن المسيب والأعرج فأكثر وغيرهم، وعنه ابناه أبو القاسم وعبد الرحمن، ومالك والليث، والسفيانان، وموسى بن عقبة، وابن إسحاق وخلق، قال البخاري: أصح أسانيد أبي هريرة: أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، قال الواقدي: مات فجأة في رمضان سنة ثلاثين ومائة وهو ابن ست وستين سنة.

عن الأعرج: هو أبو داود عبد الرحمن بن هرمز الأعرج المدني، ذكره محمد بن سعد في الطبقة الثانية من أهل المدينة وقال كان ثقة كثير الحديث وقال علي بن المدني عن أعلى أصحاب أبي هريرة فبدأ بسعيد بن المسبب ثم قال وبعده أبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو صالح السمان وابن سيرين قيل فالأعرج فقال هو ثقة وهو دون هؤلاء، وقال أحمد بن عبد الله العجلي مدني تابعي ثقة وقال أبو زرعة وابن خراش: ثقة، وكان الأعرج يكتب المصاحف. مات بالإسكندرية سنة117هـ وروى له الجماعة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: هو عبد الرحمن بن صخر، قدم المدينة سنة سبع والرسول صلى الله عليه وسلم بخيبر، فسار إليه وأسلم على يديه ولازمه ملازمة تامة رغبة في العلم، ولذا كان أكثر الصحابة رواية ببركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، روي عنه خمسة آلاف وثلاثمائة حديث وأربعة وسبعون (5374) وقيل أن عمر رضي الله عنه استعمله على البحرين ثم عزله ثم راوده على العمل فأبى وناب عن الإمارة ولم يزل يسكن المدينة حتى توفي رضي الله عنه بها سنة 57في آخر خلافة معاوية وله من العمر 78 سنة ودفن بالبقيع رضي الله عنه وأرضاه.

أهمية الحديث:

هذا حديث عظيم يبين لنا أن محبة النبي صلى الله عليه وسلم، دليل على الإيمان الصحيح، ولا يمكن أن تضاهيها محبة أخرى بعد محبة الله عز وجل، ولذا فعلى المؤمن كي يكون صادقا في إيمانه، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فعلينا أن نتنبه ونحن نحتفل بذكرى مولد الحبيب صلى الله عليه وسلم.

مفردات الحديث:

"والذي نفسه بيده": فيه جواز الحلف على الأمر المهم توكيدا وإن لم يكن هناك مستحلف.

"لايؤمن": أي إيمانا كاملا.

"أحب": هو أفعل بمعنى المفعول، وهو مع كثرته على خلاف القياس، وفصل بينه وبين معموله بقوله "إليه" لأن الممتنع الفصل بأجنبي.

"من والده وولده": قدم الوالد للأكثرية لأن كل أحد له والد من غير عكس.

المعنى العام

الحديث عن محبته عليه الصلاة والسلام متعة عظيمة. أما الألسنة، فتترطب بذكره، والصلاة عليه، وأما الآذان، فتتشنف بسماع سيرته وهديه وحديثه، وأما العقول، فتخضع لما ثبت من الحكم والسنة التي جاء بها عليه الصلاة والسلام، وأما الجوارح والأعضاء، فتنتفع وتتمتع بموافقة هديه وفعله وحاله صلى الله عليه وسلم.

1. مفهوم المحبة:

المحبة كما قال ابن القيم، ووافقه ابن حجر قال: المحبة لاتحد . أي لايذكر لها تعريف . إذ هي أمر ينبعث بنفس يصعب التعبير عنه.

ثم المحبة لها جوانب منها: محبة الاستلذاذ بالإدراك، كحب الصور الجميلة والمناظر والأطعمة والأشربة... تلك محبة فطرية، أو تكون محبة بإدراك العقل، وتلك المحبة المعنوية التي تكون لمحبة الخصال الشريفة، والأخلاق الفاضلة، والمواقف الحسنة، وهناك محبة لمن أحسن إليك، ولمن قدم لك معروفا، فتبعث المحبة حينئذ، لتكون ضربا من ضروب الحمد والشكر، فينبعث الثناء بعد ذلك ترجمة لها وتوضيحا لمعانيها.

قال النووي رحمه الله في كلمة جميلة: وهذه المعاني كلها موجودة في النبي صلى الله عليه وسلم لما جمع من جمال الظاهر والباطن، وكمال الجلال، وأنواع الفضائل وإحسانه إلى جميع المسلمين بهدايته إياهم إلى الصراط المستقيم، ودوام النعم والإبعاد من الجحيم.. فإن نظرت إلى وصف هيئته صلى الله عليه وسلم، فجمال مابعده جمال، وإن نظرت إلى أخلاقه وخلاله، فكمال مابعده كمال، وإن نظرت إلي إحسانه وفضله على الناس جميعا وعلى المسلمين خصوصا، فوفاء مابعهده وفاء.

ومن هنا، تعظم محبته صلى الله عليه وسلم ويستولي في المحبة على كل صورها وأعظم مراتبها، وأعلى درجاتها، فهو صلى الله عليه وسلم الحري بأن تنبعث محبة القلوب والنفوس له في كل لحظة، وفي كل تقلبات حياتنا، ولذلك ينبغي أن ندرك عظمة هذه المحبة، وهنا وقفة نتمم بها هذا.

فنحن نتعلق ونرتبط برسول الله صلى الله عليه وسلم من جوانب شتى: في جانب العقل معرفة وعلما، نقرأ ونحفظ سيرته وحديثه وهديه وسنته،والواجب منها والمندوب منها ونحو ذلك، ومحبة بالقلب، وهي عاطفة مشبوبة، ومشاعر جياشة، ومحبة متدفقة، وميل عاصف تتعلق به النفس والقلب برسول الله صلى الله عليه وسلم، لما فيه من المعاني الحسية والمعنوية.

ثم محبة بالجوارح تترجم فيها المحبة إلى الاتباع لسنته وفعله عليه الصلاة والسلام، فلا يمكن أن نقول إن المحبة اتباع فحسب، فأين مشاعر القلب؟ ولايصلح أن نقول إنها الحب والعاطفة الجياشة، فأين صدق الاتباع؟ ولاينفع هذا وهذا! فأين المعرفة والعلم التي يؤسس بها من فقه سيرته وهديه وأحواله عليه الصلاة والسلام، لذا فنحن نرتبط في هذه المحبة بالقلب والنفس، وبالعقل والفكر، وبسائر الجوارح والأحوال والأعمال، فتكمل حينئذ المحبة، لتكون هي المحبة الصادقة الخالصة الحقيقية العملية الباطنية، فتكتمل من كل جوانبها، لنؤدي بعض حق رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا.

ثانيا: حكم محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

هي واجبة على كل مسلم قطعا، والأدلة على ثبوت وجوبها كثيرة، ومن ذلك قول الله سبحانه . الذي جمع في آية واحدة كل محبوبات الدنيا،وكل متعلقات القلوب، وكل مطامع النفوس ووضعها في كفة وحب الله، وحب رسوله في كفة. قال تعالى: ((قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين)) (24)سورة التوبة.

قال القاضي عياض رحمه الله: فكفى بهذا حضا وتنبيها ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحاقه لها صلى الله عليه وسلم، إذ قرع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله، ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى: (فتربصوا حتى يأتي الله بأمره)، ثم فسقهم بتمام الآية فقال: (والله لايهدي القوم الفاسقين)، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله عز وجل ، فهذه آية عظيمة تبين أهمية ووجوب هذه المحبة.

ويأتينا دليل عظيم، بليغ في قول الحق: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم...(16)) سورة الأحزاب.

وبين ابن القيم الدلالة على وجوب المحبة في هذه الآية من وجوه كثيرة ضمنها أمرين:

الأول: أن يكون أحب إلى العبد من نفسه: لأن الأولوية أصلها الحب ونفس العبد أحب إليه من غيره، ومع هذا يجب أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أولى به منها، أي أولى به من نفسه وأحب إليه من نفسه، فبذلك يحصل له اسم الإيمان، ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضى والتسليم، وسائر لوازم المحبة من الرضى بحكمه، والتسليم لأمره، وإيثاره على ماسوه.

وأما الجانب الثاني: أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلا: بل الحكم على نفسه للرسول صلى الله عليه وسلم، يحكم عليه أعظم من حكم السيد على عبده، أو الوالد على ولده، فليس له في نفسه تصرف إلا ماتصرف فيه الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي هو أولى به من نفسه، أي بما جاء به عن الله عز وجل، وبلغهم من آياته وأقامه ونشره من سنته صلى الله عليه وسلم.

وقوله سبحانه: "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله...(31))سورة آل عمران/الآية:31. من الأدلة العظيمة الشاهدة على وجوب محبة النبي صلى الله عليه وسلم، إذ لانزاع في أن محبج الله واجبة، وإن اتباع النبي ومحبته طريق إلى محبة الله. والآيات أكثر من أن تحصر في هذا المقام.

وأما أحاديثه صلى الله عليه وسلم فصريحة في الدلالة على وجوب هذه المحبة، ومن ذلك: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين) رواه البخاري ومسلم.

وكذلك قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فقد كان مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيده فقال له عمر: (يارسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك) فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (الآن ياعمر) رواه البخاري.

وقول عمر الأول بمقتضى الأصل الطبيعي في الإنسان أن أحب شيء إليه نفسه، فلما أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بالمصطلح الإيماني، أقر عمر بأنه بالمعنى الإيماني يفضل النبي، ويحب النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من نفسه، فقال له حينئذ رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الآن ياعمر).

ثم إن حب الإنسان نفسه طبع، وحب غيره اختيار. كما ذكر الخطابي . ولذلك فعمر في جوابه الأول ذكر الطبع، ثم بعد ذلك ذكر الاختيار الذي هو مقتضى الإيمان.

حديث المنابر

من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه

■ إعداد الأستاذ: المصطفى الموهري

الخطبة الأولى

عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله فهي خير زاد في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، "يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم"سورة الشعراء/الآيتان: 89.88.

أيها المسلمون، إن حرص المرء على سلامة دينه وحسن إسلامه وصحة إيمانه دليل ظاهر وبرهان شاهد على رجاحة عقله واستقامة نهجه، ولقد أرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الحريص على كل خير لأمته إلى أدب جامع وخصلة شريفة وخلق كريم يحسن به إسلام المرء ويبلغ به الغاية من رضوان الله، وذلك ما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي وابن ماجة في سننهما وابن حبان في صحيحه بإسناد حسن عن أبي هريرة. رضي الله عنه. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه).

وهذا الحديث كما قال الإمام الحافظ ابن عبد البر رحمه الله من الكلام الجامع للمعاني الكثيرة الجليلة في الألفاظ القليلة، لأنه إذا حسن إسلام المرء استلزم منه ذلك ترك ما لا يعني من المحرمات والمشتبهات والمكروهات وفضول المباحات وهي القدر الزائد على الحاجة، ومن عبد الله على استحضار قربه من ربه أو قرب ربه منه فقد حسن إسلامه، ولزم من ذلك أن يترك كل ما (لا) يعنيه في الإسلام واشتغل بما يعنيه وعلى العكس من ذلك من أضاع نفائس الأوقات فيما لم تخلق له باشتغاله بما لايعنيه، فانصرف به عما ينفعه ويرتفع بمقامه ويبلغ به صحيح الغايات وشريف المقاصد وكريم المنازل، فخسر هنالك خسرانا مبينا.

ألا وإن من اشتغال المرء بما لايعنيه تعلم ما لايهم من العلوم وترك الأهم منها مما فيه صلاح قلبه وتزكية نفسه ونفع إخوانه ورفع شأن وطنه وأمته، ومنه -أيضا- عدم حفظ اللسان عن لغو الكلام وعن تتبع ما لا يهم ولا ينفع من أخبار الناس وأحوالهم وأموالهم ومقدار إنفاقهم وادخارهم ومن إحصاء ذلك عليهم والتنقيب عن أقوالهم وأعمالهم داخل دورهم وبين أهليهم وأولادهم، بغير غرض شرعي سوى الكشف عما لايعني من خاص شؤونهم وخفي أمورهم.

ومن ذلك أيضا . عباد الله . تكلم المرء فيما لايحسنه ولايتقنه مما لم يعرف له تخصص فيه ولا سابق إلمام أو خبرة به، ولم يكن مطلوبا منه التحدث أو إبداء الرأي فيه، وقد يخرج به ذلك إلى الخوض فيما لايجوز الخوض فيه من أحاديث الفواحش والشهوات ووصف العورات وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات ونشر قالة السوء وبث الشائعات والأكاذيب والأخبار المفتريات، وقد يجتمع إلى ذلك ولع بما يسمى بالتحليلات والتوقعات المبنية في غالبها على الظنون والأوهام، وكل ذلك مما لايصح تتبعه ولا الخوض فيه ولا الاستناد إليه ولاالاغترار به ولا العمل بمقتضاه.

ألا وإن ما يعين على ترك المرء ما لايعنيه أن يتذكر أنه مسؤول عن عمره: فيم أفناه؟ كما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي في جامعه بإسناد صحيح عن أبي برزة الأسلمي. رضي الله عنه. أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره: فيم أفناه؟ وعن علمه: مافعل فيه؟ وعن ماله: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن جسمه: فيم أبلاه؟).

وأن يتذكر أن كل مايلفظ الإنسان من قول إلا وهو مسطر في صحائفه مجزي به، ليعلم أن الكلمة مسؤولية وتبعة كما قال عز من قائل: (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)(سورة ق/الآيتان:18.16)، وظاهر الآية. كما قال العلامة الحافظ ابن كثير رحمه الله . أن الملك يكتب كل شيء من الكلام، ويؤيده عموم قوله سبحانه: (مايلفظ من قول)، إذ هو شامل لكل قول.

وقد أخرج مالك في الموطأ وأحمد في مسنده والترمذي والنسائي وابن ماجة في سننهم بإسناد صحيح عن علقمة الليثي عن بلال بن الحارث. رضي الله عنه. أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى، مايظن أن تبلغ مابلغت، يكتب الله بها رضوانه إلى يوم يلقاه. وإن الرجل ليتكلم من سخط الله تعالى، مايظن أن تبلغ مابلغت، يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه)، فكان علقمة الليثي يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث، أي: هذا الحديث وما فيه من الوعيد. أما حب التصدر وصرف الأنظار فهو مقصود مذموم وخصلة مرذولة، لايجتني من بلي بها سوى المقت من الله ومن الذين آمنوا.

فاتقوا الله عباد الله، واعملوا على الاقتداء بالصفوة من عباد الرحمن في ترك ما لايعني من الأقوال والأعمال، تكونوا من المفلحين الفائزين في جنات النعيم، (أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب)سورة الزمر/الآية:18.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه وبسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، أحمده سبحانه وهو البر الرؤوف الرحيم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبد الله ورسوله صاحب النهج الراشد والخلف القويم، اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أفضل صلاة وأتم تسليم.

أما بعد: فيا عباد الله، نقل عن الحسن البصري رحمه الله قوله: "من علامة إعراض الله عن العبد أن يجعل شغله فيما لايعنيه".

فعلى العاقل الذي يرجو الله والدار الآخرة أن يكون مقبلا على شأنه، حافظا للسانه، بصيرا بزمانه، وأن يعد كلامه من عمله، فإن من عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه، ذلك أن أكثر ما يقصد بترك مالايعني كما . قال العلامة الحافظ ابن رجب رحمه الله . حفظ اللسان عن لغو الكلام، وحسبه ضررا أن يشغل صاحبه عن ألوان كثيرة من الخير الذي يسمو به مقامه ويعلو به قدره وتشرف به منزلته وتطيب به حياته وتسحن به عاقبته.

ألا فاتقوا الله عباد الله، واحرصوا على ماينفعكم في دنياكم وأخراكم.

في إرقاع الصلاة

للإمام: محمد بن محمد جزي

من فاتته بعض صلاة الإمام: أتمها. وفي كيفية ذلك ثلاثة أقوال:

. البناء: وهو أن يجعل ما أدركه مع الإمام أول صلاته فيكمل عليه، وفاقا لأبي حنيفة.

. والقضاء: وهو أن يجعل ماأدرك مع الإمام آخر صلاته فيفعل ما فاته كما فعل الإمام، وفاقا للشافعي وابن حنبل.

. والبناء في الأفعال، والقضاء في الأقوال: وهو المشهور.

وبيان ذلك في الصلوات:

أما الصبح والجمعة: فإذا فاتته منها ركعة: قام يقضي، فقرأ بأم القرآن وسورة على كل قول. ويظهر أثر الخلاف في القنوت: فعلى البناء، يقنت، ولايقنت على القضاء.

وأما الظهر والعصر: فإن فاتته منهما ركعة أو ركعتان: فعلى البناء يقرأ بأم القرآن وحدها، وعلى القضاء وسورة معها. وكذلك على المشهور. وإن فاتته ثلاثة: فعلى البناء يقوم فيصلي ركعة بأم القرآن وسورة، ثم يجلس ويتشهد، ثم يصلي ركعتين بأم القرآن وحدها، وعلى القضاء يقوم فيصلي ركعتين بالفاتحة وسورة في كل ركعة، ثم يجلس، ثم يصلي ركعة بالفاتحة. وعلى المشهور: يقوم فيصلي ركعة بأم القرآن وسورة، ثم يجلس، ثم يصلي أخرى بأم القرآن وسورة، ثم يقوم فيصلي بأم القرآن وحدها.

وأما العشاء الآخرة: فكالظهر، إلا أنه يجهر حيث يقرأ بأم القرآن وسورة.

وأما المغرب: فإن فاتته منها ركعة:فعلى البناء يقرأ بالفاتحة وحدها، وعلى القضاء وعلى المشهور بسورة معها. وإن فاتته منها ركعتان: فعلى البناء يقوم فيصلي ركعة بأم القرآن وسورة جهرا، ثم يجلس، ثم يصلي ركعة بأم القرآن وحدها، وعلى القضاء يصلي ركعتين جهرا بأم القرآن وسورة ولايجلس بينهما، وعلى المشهور يصلي ركعتين بأم القرآن وسورة جهرا ويجلس بينهما.

× فروع ثلاثة:

. الفرع الأول: من ركع فمكن يديه من ركبتيه قبل أن يرفع الإمام رأسه من الركوع فقد أدرك الركعة عند الأربعة. فإن شك: هل رفع الإمام رأسه؟أم لا؟ لم يعتد بتلك الركعة، ولايعتد بإدراك السجود.

. الفرع الثاني: إذا لم يدرك المسبوق ركوع الركعة الأخيرة، فدخل في السجود أو الجلوس، فقد فاتته الصلاة كلها، فيقوم فيصليها كاملة، فإن جرى له ذلك في الجمعة صلاها ظهرا أربعا، وقال أبو حنيفة: ركعتين جهرا.

. الفرع الثالث: إذا قام المسبوق بعد سلام الإمام: قام بتكبير إن كان جلوسه مع الإمام موضع جلوس له، وذلك بأن يصلي معه ركعتين، وإلا قام بغير تكبير، وذلك إذا صلى معه ركعة أو ثلاثا، وقيل: بتكبير.

■ انظر: القوانين الفقيه

مفهوم الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم

■ إعداد الدكتور: مصطفى أوعيشة

■ إن أولى ما تجنح إلى تحصيله الهمم العالية وأحق ما وجب صرف الجهود لدركه والأخذ بعنانه ما كان موصلا للتقرب به إلى الباري عز وجل، وطلب الزلفى منه. وذلك العلم النافع، الذي يهدي إلى التقوى ويرسم معالم السلوك إليه سبحانه. ولا جدال في أن أشرف العلوم وأولاها بالدرس تبينا وبيانا ماكانت قضاياه مستنبطة من القرآن الكريم.

ولاسبيل إلى فهم كلام الله تعالى والتدبر في آيات كتابه العزيز، بله الاستنباط منه وإصلاح حال الأمة به، إلا بفقه مصطلحاته، التي هي مفاتيحه، التي لاتفتح أبوابه إلا بها. وحفظ الله أستاذنا الدكتور الشاهد البوشيخي إذ يقول: "وما لم يتجدد فهم الأمة للقرآن فلن تتجدد الأمة، ولن يتجدد فهم القرآن حتى يتجدد فهم مصطلحات القرآن، مفاهيم ونسقا. وذلك بأن الوحي قرآنا وسنة مجموعة من المفاهيم، إذا حُصّلت حُصّلت كليات الدين وإذا لم تفقه لم يفقه الدين، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين".

لهذا الاعتبار أضحى تخصيص المصطلح القرآن بالبحث والدراسة أولى الأولويات وضرورة الضرورات. وذلك لبث وعي قرآني جديد بالمفاهيم التي يشتمل عليها كتاب الله المجيد.

من هذا المنطلق تأتي هذه الدراسة لمفهوم الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم. إذ يعد من أهم المفاهيم القرآنية في مجال الاجتماع الإنساني، التي تبرز الرؤية الإسلامية في تفسير المجتمع والتاريخ.

أبدأ إن شاء الله تعالى هذه الدراسة بوضع وتحليل تعريف لكل من الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم. على أن تخصص الحلقات المقبلة بعون الله وتيسيره لبسط القول في علاقات المصطلحين بغيرهما من المصطلحات المؤالفة والمخالفة وضمائمهما ومشتقاتهما. وأختم ببيان القضايا الكلية والجزئية لهذا المفهوم. كل ذلك من خلال نصوص القرآن الكريم ذات الصلة.

وفيما يلي عرض لعناصر الموضوع:

أولا: مفهوم الاستكبار والاستضعاف في اللغة.

أ. الاستكبار.

ب. الاستضعاف.

ثانيا: الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم إحصاء وتصنيف.

1. الاستكبار.

2 الاستضعاف.

ثالثا: تعريف مقترح للاستكبار في القرآن الكريم.

أ. التعريف.

ب. تحليل التعريف إلى عناصره والاستدلال عليه.

رابعا: تعريف مقترح للاستضعاف في القرآن الكريم.

أ. التعريف.

ب. تحليل التعريف.

خلاصة.

مدخل

يشكل التعريف ماهية المصطلح أو ذاته التي على أساسها تبنى سائر الأركان، فهو الذي يمهد للنظر في سائر أركان الدراسة الأخرى.

ويتضمن هذا البحث خلاصة لدراسة مصطلحي الاستكبار والاستضعاف في المعاجم اللغوية ثم من خلال نصوصهما في القرآن الكريم ومن مجموع كل المعطيات المعجمية والإحصائية والدلالية، فيكون التعريف بذلك جامعا لكل السمات الدلالية لمفهوم كل من الاستكبار والاستضعاف، ليشرح بعد ذلك كل عنصر فيه ويمثل له من النصوص وغيرها من المتعلقات مايدلل على صحته.

أولا: مفهوم الاستكبار والاستضعاف في اللغة

أ. الاستكبار:

تدور مادة (ك،ب،ر) في اللغة حول أصل يدل على خلاف الصغر. ومنه تفرعت معاني سائر الصيغ والاستعمالات. قال ابن فارس: "الكاف والباء والراء أصل صحيح يدل على خلاف الصغر".

وباستقراء مختلف الاستعمالات، تبين أن الأصل في الكبر أن يستعمل في الأعيان ثم أستعير للمعاني. لذلك فرق المعجميون بين كبر بالفتح والكسر وكبر بالضم، فالصيغة الأولى تدل على الطعن في السن، قال ابن دريد: "الكبر ضد الصغر، كبر إذا أسن".

وأما كبر بالضم فتدل على المشقة وعلى علو المنزلة، بمعنى العظمة. يقال كبر الأمر وخطب كبير، وكبر علي ذلك، إذا شق عليك. "ويقال كبر بالضم يكبر أي عظم فهو كبير" قال الزمخشري: "وكبر الرجل في قدره وكبر في سنه".

نستنتج من هذا أن صيغة "كبر" لها معنيان: أحدهما حقيقي، هو الزيادة في السن، وثانيهما مجازي، هو زيادة في كلفة الشيء أو زيادة في منزلة إنسان ما وقدره. ولذلك أمكن حصر المعاني الجزئية التي وردت بها مشتقات المادة اللغوية في معنى كلي جامع هو: الزيادة. أما صيغة "استكبر" فهي اشتقاق من "كبر" على وزن استفعل، بزيادة الألف والسين والتاء. وهي مشتقة من "كبر" بالضم بدلالة العظمة لابدلالة المشقة.

وصيغة "استكبر" هي في معنى "تكبر"، حيث أن "استفعل" تأتي في أحد معانيها موافقة لـ "تفعل" قال أبو حيان في "البحر المحيط" في تفسيره لقوله تعالى : "إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين": "الاستكبار والتكبر: وهومما جاء فيه استفعل بمعنى تفعل.

وبيان ذلك أن الخماسي على وزن: "تفعل" يأتي للدلالة على تكلف الكبر، ويأتي السداسي على وزن "استفعل" للدلالة على الإسراف والمبالغة في التكبر.

قال سيبويه وهو يتكلم في باب "استفعلت": "وإذا أراد الرجل أن يدخل نفسه في أمر حتى يضاف إليه ويكون من أهله، فإنك تقول تفعل... وقد دخل استفعل هاهنا، قالوا: تعظم: استعظم وتكبر واستكبر".

وجاء في الخصائص لابن جني وهو يتحدث عن معاني صيغة "استفعل": "وقد يأتي موافقا لتَفَعَّلَ وافْتَعَلَ وأَفعَلَ وفَعَّلَ، مثل استكبر في تكبر" يقال: استكبر الشيء: رآه كبيرا وعظم عنده، واستكبر المرء: تعاظم أو تعظم، والكبر العظمة والتجبر" والتكبر والاستكبار: التعظم وكلها ألفاظ متقاربة كما قال الراغب.

ب. الاستضعاف:

تدور مادة (ض،ع،ف)في اللغة حول معنيين مختلفين، أحدهما يدل على خلاف القوة ويدل الآخر على أن يزاد على أصل الشيء فيجعل مثلين أو أكثر.

قال ابن فارس: "الضاد والعين والفاء أصلان متباينان: يدل أحدهما على خلاف

الحلقة الأولى

القوة يدل الآخر على أن يزاد الشيء مثله.

فالأول: الضَّعْفُ والضُّعْفُ، وهو خلاف القوة، يقال: ضَعُفَ، يَضْعُفُ، ورجل ضعيف وقوم ضعفاء وضعاف.

وأما الأصل الآخر، فقال الخليل: "أَضْعَفْتَ الشيء إضْعَافاً، وضَعَّفْتُهُ تَضْعِيفاً وضَاعَفْتُهُ مُضَاعَفَةً، وهو أن يزاد على أصل الشيء فيجعل مثلين أو أكثر".

والذي يعنينا في بحثنا هو الأصل الأول دون الثاني.

هذا وقد ميز بعض المعجميين بين الضَّعْف بالفتح والضُّعْف بالضم. قال الخليل: الضُّعْفُ بالضم في البدن والضَعْفُ بالفتح في العقل والرأي".

وقيل هما لغتان في الوجهين. وخص الأزهري بذلك أهل البصرة، فقال: "هما عند أهل البصرة سيان، يستعملان معا في ضُعْفِ البدن وضَعْفِ الرأي"

والاستضعاف اشتقاق من الضعف. يقال استضعف يستضعف استضعافا. فالزيادة بالألف والسين التاء للعد، وهو أحد معاني صيغة "استفعل".

وقال الفيروز أبادي: "وضَعَّفَه تَضْعِيفاً، عده ضعيفا كاستضعفه وتضَعَّفَه"واستضعفته وتضعفته: وجدته ضعيفا فركبته بسوء.

ثانيا: الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم: إحصاء وتصنيف

1. الاستكبار

أ. بحسب الجذور:

أمكن حصر مواضع المشتقات التي ترجع إلى الجذر اللغوي المتمثل في مادة (ك،ب،ر) في واحد وستين ومائة موضعا(161).

وأما الجذر المفهومي فهو متفرع عن الأول، ويضم مجموع الصيغ والمشتقات التي ترجع إلى نفس الأصل المتمثل في "الاستكبار" أو "الكبر" أو "التكبر". ومجموع مواضعها في القرآن الكريم ستون موضعا(60).

وفيما يلي جدول بإحصاء جميع الصيغ وحجم ورودها

الصيغة	حجم ورودها
اسْتِكْبَاراً	2
اسْتَكْبَرَ	4
أَسْتَكْبَرْتَ	1
اسْتَكْبَرْتَ	1
اسْتَكْبَرْتُم	3
اسْتَكْبَرُوا	20
يَسْتَكْبِرُ	1
يَسْتَكْبِرُونَ	7
تَسْتَكْبِرُونَ	3
مُسْتَكْبِراً	2
مُسْتَكْبِرُونَ	2
مُسْتَكْبِرِين	1
المُسْتَكْبِرِين	1
كِبْرٌ	1
تَتَكَبَّرُ	1
يَتَكَبَّرُونَ	1
مُتَكَبِّرٌ	2
المُتَكَبِّرِينَ	4
كُبَرَاءَنَا	1
أَكَابِرَ	1
الكِبْرِيَاء	1

وتكمن فائدة هذا التصنيف في أنه هو الأساس والمنطلق في فرز المفهوم والمقصود بالدراسة من بين سائر المفاهيم المشاركة له في أصل المادة.

ب. بحسب أحوال الورود:

1. زمن الورود:

بلغ مجموع الآيات المكية واحدا وخمسين (51) والآيات المدنية تسعة (9).

ويعزى هذا التفاوت الكبير إلى كون الاستكبار موضوعا عقديا بالأساس، ذكر في جل الموارد، في معرض بيان رفض المستكبرين لرسالة الأنبياء وصدهم المستضعفين عنها ومنعهم من عبادة الله عز وجل.

ومما يؤكد هذا كونه ورد في كثير من النصوص القرآنية التي يقص الله عز وجل فيها نبأ الأمم السابقة، وكيف تعاملت مع أنبيائها ورسلها. وجل النصوص. كما هو معلوم. من هذا النوع، جاءت مكية، تتناول قضايا العقيدة بالأساس. كتلك التي تحدثت عن استكبار قوم نوح على نوح واستكبار عاد على هود، واستكبار ثمود على صالح...أو تلك التي عرضت لتخاصم المستكبرين مع المستضعفين، سواء في الدنيا أو يوم القيامة أمام الله تعالى.

2 شكل الورود:

ونعني به، الصيغ الصرفية والتراكيب النحوية التي ورد بها المصطلح في القرآن الكريم.

× الأسمية والفعلية:

بلغ مجموع الصيغ الإسمية للفظ الاستكبار: (مصدرا واسم فاعل ...) ثمانية عشر(18)، أما الفعلية فبلغ مجموعها اثنين وأربعين (42).

وهذا يظهر خضوع مفهوم الاستكبار لسنة التغيير التي يمثلها حدث الفعل وأزمنته.

فالاستكبار بالأساس فعل ممارس أكثر منه صفة. إنه رفض لدعوة الأنبياء وصد عنها.

لقد ارتبط بحركة الإعراض التي مثلتها أمم الأنبياء عبر التاريخ.

وهكذا جاء وروده بصيغة الفعل الماضي تسعا وعشرين مرة (29) وورد فعلا مضارعا ثلاث عشرة مرة (13). مما يفيد تجدده من المستكبرين وثباتهم عليه.

×الإفراد والجمع:

. ورد الاستكبار بصيغة المصدر مرتين في القرآن الكريم.

. ورد الاستكبار اسم فاعل بصيغة (مستكبر) وبصيغة (متكبر)، مفردا في أربعة مواضع(4)، موضعين لكل صيغة، وورد جمعا بصيغ: (مستكبرون)و(مستكبرين)و(المستكبرين) في أربعة مواضع(4)، وبصيغة (المتكبرين) في أربعة مواضع كذلك(4).

. ورد صفة بصيغة الجمع:(كُبَرَاء) في موضع واحد(1).

. ورد اسم تفضيل للجمع: (أَكَابِر) في موضع واحد(1).

. وردت صيغة: (الكبرياء) في موضع واحد (1).

. ورد المصطلح فعلا ماضيا بصيغة الجمع: "استكبروا" و "استكبرتم" ثلاثا وعشرين مرة(23). وورد بصيغة المفرد: (اسْتَكْبَرَ)و (استكبرت) في ستة مواضع(6)

. ورد فعلا مضارعا بصيغة الجمع: (يستكبرون)و(تستكبرون)و (يَتَكَبَّرُون) في أحد عشر موضعا (11) وورد بصيغة المفرد: (تَسْتَكْبِرُ) و (تَتَكَبَّرُ) في موضعين اثنين(2).

وتجدر الإشارة إلي أن كل صيغة أو شكل من هذه الأشكال النحوية والصرفية ينطوي على دلالات خاصة تميزه عن غيره، وسيأتي بيان ذلك في موضعه من البحث.

تشريع الإسلام نعمة من نعم الله تعالى لإصلاح نفوس البشر وحياتهم

■ إعداد محمد بشاري

■ لقد أكرم الله سبحانه وتعالى الانسان بنعمة الوجود وأضفى عليه نعمة الحياة وزوده بنعمة الحواس والإدراك والرغبة والميل والحب للمشتهيات، وسخر له المجموعات الكونية : الجمادات والنباتات والحيوانات ، وجعلها تمده بما يحتاج إليه من الإمدادات ثم أضاف إلى هذه النعم التكليف بالطاعة في الأعمال والتصرف اتباعا لشريعة الله قولا وفعلا وذلك قصد اصلاح النفوس عن طريق تحديد الرغبات وضبطها من التفريط والإفراط وبيان ما يصلح لها وما لا يصلح من المشتهيات مع تنظيم الأعمال والأوقات بالأحكام في الحياة. تنبيها على أن الانسان لا يتمتع بالحياة الطيبة ولا يفوز بدوامها في الحياة الدنيا، ولا يمتد اثرها منها إلى الحياة الأخرى إلا بالتكليف الذي يميز بين المطيع المتمسك بالتشريع الرباني حبا واذعانا له، وبين العاصي الذي يفضل اتباع الهوى والانكار للتشريع جحودا له.

وإذا كنا نحن البشر لانحاسب إلا من له القدر والشأن، ولا نعاتب الامن ننظر إليه باهتمام بناء على مقياسنا البشري ، فإننا ندرك أن مسألة التكليف والمحاسبة على العمل من الله تعالى يعد مزيدا من التكريم للعنصر البشري ومزيدا من التفضيل له على غيره ومزيدا من العناية بشأنه وهذا لا يخفى على العاقل البصير .

لأن التشريع يجمع بين كونه علما نظريا نقليا ثقافيا وبين كونه منهج سلوكي عملي تطبيقي فهو يعلم المكلف الثقافة الاسلامية ويحبب إليه الحياة على مستوى ما يطرح أمامه من البيانات والتوجيهات من أجل أن يكون واعيا وحقوق نفسه وحقوق غيره من الأقارب وغير الأقارب ثم يلزمه أن يطبق ذلك سلوكا وعمليا ويطالب منه أن يقضي عمر حياته على هدى من الله ورضوانه ويصون نفسه من الجهل والخطأ ارشادا له بأن باب الرشد هو التشريع الرباني وأن المكلف لايبلغ درجة الكمال فيه حتى يكون على علم وبينة بأمور ثلاثة وهي:

1. أن يعرف ربه بما عرف به نفسه من الأسماء والصفات عن طريق السمع والبصر.

2. أن يعرف علة الوجود الكوني بما عرفها بها خالقها في كتابه.

3. أن يعرف الغاية من وجوده هو نفسه في هذا الوجود العريض.

ومن هذا الجانب كان التشريع الإسلامي متمما للنعم الأخرى ومكملا لها حيث أنه يحدد لكل نعمة من النعم مزيتها ودرجتها ورتبتها من النعم الأخر بالنسبة إلى الأمر بالتكليف. كما يعلي جانب الرحمة على جانب العدل في الحكم المتعلق بالمأمورات والمنهيات حيث جعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة بمثلها أو يعفو عنها بمكفر من المكفرات العديدة المختلفة منها الصلوات الخمس وصلاة الجمعة وصيام رمضان وقيامه والصدقات والحج والعمرة والتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل وغير ذلك من الأذكار والدعوات والاستغفار وما يصيب المسلم من هم وغم وحزن ونصب ووصب وأذى حتى شوكة يشاكها كل هذه الأمور يكفر الله بها خطايا الانسان المسلم ويضع بذلك عنه وزره إلا ذنبا واحدا وهو الاشراك بالله في الربوبية أو في الألوهية.

وذلك تشريفا للانسان وتقديرا له كي يحافظ على انسانيته الطبيعية الحقة ولا يخلد إلى الأرض ويتبع هواه ويكون مثل الحيوان في النزول، والتسفل في القدر، ولا يترفع ويعصي ربه بالترفع ويكون مثل الشيطان في العصيان والتمرع.

وعلى هذا فإن عدم التمسك بالتشريع الإسلامي ورفض العمل به في الحياة الاجتماعية كلا أو بعضا فهو إما ناشيء عن جهل وعدم التوعية به أو ناشيء عن تعنت واستكبار وتمرع وفي كلتا الحالتين فإن الأمة الإسلامية مسؤولة على ضياع التشريع وعلى عدم العمل به كله أو عن ترك بعضه وفي كتاب الله « وأن ياتوك اسارى تفادهم وهو محرم عليكم اخراجهم افتومنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ..» سورة البقرة.

لأن الانصراف عن تشريع الله إلى تشريع غيره كلا أوبعضا يعتبر شرعا اشراكا بالله في الربوبية شرعا والإسلام لا يسمح به ولا يرضاه علما بأن التشريع من خصوص من له الربوبية ويتصف بالقدرة على الخلق والامر أما من لا قدرة له على الخلق والإبداع فليس له الحق في التشريع ولا في الأمر والنهي ولا في التقنين للناس أو لنفسه لأنه لايعلم من أمور الحياة شيئا كما أنه لا يعلم من طبائع الناس شيئا ومن يفعل ذلك يصب بالخزي والعار في الحياد الدنيا ويكون له أشد العذاب في الأخرة هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن واقع الحياة يشهد على أن التلذذ بالنعم والتقلب فيها لا يدوم لأحد وان كل إنسان مهما عظم قدره أو نزل فإنه يشعر بأنه سيفارقها بالموت الذي هو سيف مهند مسلول على رأس كل صغير وكبير وانه ينتظر الأمر والاذن بالقطع وانه لا يرحم أحدا وانه يغيبه من الوجود.

أو ستفارقه النعم هي نفسها بحادث من الأحداث العارضة وينزعها منه ،يبقى هو تعسا من ورائها يتألم على فراقها ويتألم على ضياعها منه.

وكل واحد منا يدرك هذه الظاهرة ، ويشاهد وقائع عديدة منها.، ويتوقع أنه سياتي دوره لا محالة أما بهذه أو بتلك ، في دنيا الاغيار ، وفي هذه الحالة المزعجة للنفوس وأمام هذا التوقع المثير للقلق والتحسر والضيق النفسي يجد الانسان أن الحق سبحانه وتعالى الذي خلقه من تراب ونفخ فيه من روحه قد بدل له الخوف بالأمن والحسرة بالفرج والعذاب بالرحمة حيث أكرمه بالتشريع الرباني وقدمه إليه كمنهج ثقافي أولا وسلوكي ثانيا وكلفه أن يتلقى منه ما تيسر كمادة علمية ثقافية، ويعمل به في الحياة الاجتماعية ابتغاء لوجه الله ومرضاته والتقرب إليه تعالى به، على أساس أن من تلقى التشريع وطبقه في حياته طاعة لله فإن العمل به يضمن له الترقي في التنعم والعيش في الدنيا وأنه يحيا فيها سعيدا لا يضل ولا يشقى، كما يضمن له السعادة في الحياة البرزخية مدة مكثه في قبره بفضل العمل الصالح الذي كان يتقرب به إلى ربه، ويبتغي به مرضاته ويسعى إلى نيل دار النعيم بصفة أبدية وفي الدرجات العلى وفي كتاب الله : «فإنا ياتيكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى..) سورة طه . وهذا يزيل القلق عن النفوس المؤمنة بالتشريع ويحبب لها الحياة ويكشف لها أن اتباع الهدى والشريعة يضمن السعادة في الدنيا وأنه يربط بينها وبين الآخرة في هذه السعادة البعض من الناس يكون غافلا عن حكمة التشريع ولا يدرك أبعاده ويفرط فيه ولا يتبعه وينشأ من عدم الاتباع الخلل في العمل أو التعامل ثم ينتقل إلى المجتمع بالعدوى .

لذا خصص الله تعالى عقوبات شرعية غَيْرَةً منه تعالى على ارتكاب المخالفة والانصراف عن التشريع إلى الأهواء أو إلى غير تشريع الله وقصد إلزام المكلف وإرغامه على احترام التشريع والتقيد بأحكامه ، واعد لكل ذنب أو جرم ما يناسب صاحبه من الزجر والعقاب في الدنيا طهرة له مما فعل من الذنب أو الجرم وحبا في الاستقامة على الطاعة وتقويم المنحرفين من الانحراف كي تنتظم الحياة ويعم الأمن ويسود الاستقرار في ربوع البلاد.

والعقوبات المشروعة تمثل في التعزيز والقطع والقصاص والارث والدية والكفارات إذ لكل عقوبة من هذه العقوبات أثرها التربوي والتأديبي لأعلى المعاقب فقط وأنما يتعدى ذلك الأثر إلى المجتمع نفسه عملا بمقتضى قوله تعالى ولكم في القصاص حياة ياؤلي الألباب) سورة البقرة. والاسلام لا يهدف من وراء إعداد هذه العقوبات وتقنينها وتخصيصها إلا من أجل تقويم النفوس المنحرفة وتهذيبها وإرجاعها إلى الاعتدال والطاعة وفي كتاب الله (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما) سورة النساء.

ومما يسهل على المكلف اتباع المنهج الرباني وتطبيقه قوله صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» رواه البخاري.

لأن الامر به أمر تكليفي وهذا يفيد الاخبار به قبل التطبيق ، وإذا علم الناس ماهو المطلوب منهم فعله ، ولم يفعلوه فيحاسبوا عليه سحابا مشروعا وبالمحاسبة تستتب الأمور وتستقر على حالة يرضاها الشرع والطبع وعندئذ يصدق على الأمةالاسلامية الموصوفة بخير أمة ، قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله) سورة آل عمران.

وهذا لايتم لها ولا تدركه إلا على ضوء التشريع الإسلامي والعمل به في جميع مجالات الحياة مع توظيف قوله (صلى الله عليه وسلم) في الحياة الاجتماعية (من رأى منكم منكر فليغيره بيده..) إلى جانب تطبيق ما أعد للمخالفة من العقوبة مع الاثبات والشروط . فإذا نفذت الأحكام القاضية بتنفيذ عقوبة من العقوبات المقررة وطبقت كانت كافية في تطهير صاحب الذنب أو الجرم من ذنبه ومن معهما في الصف قدرا، وتكون اما بمرض من الأمراض القلبية أو البدنية وأما بحادثة من الحوادث العارضة فتصيبه في المكتسبات المالية أو في البدن أو في الأولاد أو في الأهل والأقارب . وفي كتاب الله :(ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) سورة الروم.

لأن الانسان لا يشعر بالاحتياج ولا يقر بالضعف إلا بعدما يعاقب شرعا أو قدرا فعندئذ تجده يستغيث ويتوسل يرجو العفو (والسماح ويعد بالاستقامة والرجوع عن الانحراف وهنا تتجلى حكمة التشريع المنهجي السلوكي الذي تنبني عليه الحياة ، وحكمة تشريع العقوبات للمنحرفين على العمل بهذا التشريع بالإضافة إلى نزول العقوبات القدرية حالة وجوده التعفن الناشئ عن التصرف المطلق واللامحدود في الطبيعة أو فيما بين افراد البشر أو الجماعات، ولولا العقوبة المقررة شرعا أو التي تنزل عوضها قدرا لما عرف أحد من المنحرفين ربه ولا احس بالضعف ولا شعر بالافتقار إليه ولكن بفضل هذه العقوبات التي تنزل به عرف ان له ربا يحميه وأنه لا محالة بالرجوع إلى الاهتداء بشرعه والتمسك به فإذا رجع إلى الشريعة وتاب فإن الله يتوب عليه عملا بقوله تعالى ومن أعرض عن ذكره فان له معيشة ضنكا في الدنيا ويحشر يوم القيامة أعمى جزاء على غيّه وانحرافه وفي كتاب الله : أيضا، « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذنا هم بما كانوا يكسبون» سورة الأعراف.

وحيث أن الله تعالى جعل نفسه غاية الغايات ، وفي منتهى المقاصد للكائنات إذ كل المخلوقات تفتقر إليه تعالى افتقارا ذاتيا وتحتاج إليه تعالى احتياجا فطريا أصيلا فأهل السماء يبحثون عليه تعالى كما يبحث عليه أهل الأرض وهؤلاء يطلبون منه تعالى المداد وهؤلاء يطلبون منه المداد ولا أحد يستغني عنه تعالى ولاشيء يستقل بذاته عنه في هذه الوجود، فإنه يتحتم على الإنسان الذي أكرمه ربه بما لا يعد ولا يحصى من النعم وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا وجعله سيدا للكائنات وخليفة في الأرض كي يعمرها ويحكم فيها بالعدل ، أن يقبل على شريعة الله بقوة الرغبة واللهفة ويثقف بها نفسه ويطبقها بحذافرها في جميع مجالات الحياة ويقوم الذود عنها ابتغاء لمرضات الله حتى يكون في مأمن من الحرمان ومن عقوبة الله في الدنيا والأخرة والله الموفق لما يحبه ويرضاه.

حركة العلوم والأدب بمدينة تازة

د. ربيعة بنويس -كلية الآداب والعلوم الإنسانية - القنيطرة

الحلقة الرابعة

■ طغى على الجانب الأدبي ، شعره، ونثره الاتجاه الديني الفقهي سيرا مع المنهج العام للدولة الحاكمة، وعلى اعتبار أن كل الفاعلين في الحركة العلمية لهذه المدينة كانوا فقهاء.

ففي الجانب النثري، كان المسيطر على علمائها الاهتمام بالفتاوى والنوازل وكتابة الرسائل والمؤلفات في الوعظ والإشاد والنصح والحض على الجهاد ، وهي نفس الموضوعات التي هيمنت على الشعر كذلك ، وإن كانت أغلب هذه الانتاجات لازالت قابعة في بطون المؤلفات المخطوطة على رفوف الخزانات العامة والخاصة تحتاج لمن ينفض عنها الغبار ويحميها من أكل الأرضة.

وعلى رأس هذه الانتاجات يستوقفنا مؤلفا الشيخ ابن يجبش ، الأول في الحض على الجهاد بعنوان " تنبيه الهمم العالية على الصدقة والانتصار للملة الزاكية وقمع الشرذمة الطاغية" مخطوط بخزانة الجامع الأعظم بتازة ، رقم " 336 ق" ، (من ص 425 إلى 449) . وقد أورده الأستاذ أبو بكر البوخصيبي كاملا في كتابه " أضواء على ابن يجبش التازي " مع كل الأشعار الموجودة به ، والثاني كتاب " إرشاد المسافر للربح الوافر "، ولا يزال مخطوطا بخزانة المسجد الأعظم تحت رقم :"336ق" بتازة العليا (من ص 449 إلى 457)، ومكتبة سيدي عبد الله كنون الحسني بطنجة.

وقد امتاز الانتاج الشعري الذي صدر على أدباء أو فقهاء منتسبين إلى تازة بكونه إنتاجا فقهيا أو منظومات وأرجوزات في الفقه والقراءات ، ولنمثل لذلك بالفقيه الشاعر " عمر ابن عبد الرحمن الجزنائي" ، نسبة إلى جزناية، إحدى القبائل النازلة شمال مدينة تازة ، ومن نظمه معجبا بالفقه المالكي وبالنحو العربي الذي به تحل بعض المشكلات قوله:

أتانا سؤال كل فيه تحيرا
عبارته أهدت كلاما مقعرا
فهذا يرى رأيا وهذا يعكسه
لكل مجيب فيه حال تكررا
على أنه بالنحو سهل مرامه
وإن كان مجهول المسالك أو عرا
فالإعراب نور للبصيرة والفتى
إذا رابه أمر به قد تبصرا
فأقبل عمرو سيبويه بجمعه
فأوضح معناه الذي قد تسترا
فحل هناك المشكلات بعلمه
فأكرم به حبرا فما كان أبصرا
ومن بعده قد جاء بالفقه مالك
فأبرز نور الحق فيه وأظهرا
فلله عينا من رأى مثل مالك
إمام الأنام في العلوم تبحرا
فأكرم بهذين الإمامين ولتقل
جزاهم إله العرش خيرا عن الورى

والذي نستخلصه من هذه الأبيات أن صاحبها يؤكد على أهم العلوم التي كانت متدارسة على عهده ، ويأتي في مقدمتها النحو ثم الفقه على مذهب الإمام مالك.

وفي القراءات نجد " أبا الحسن ابن بري " صاحب المنظومة المسماة " الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع" السابقة الذكر ، في القراءات والتجويد، وقد طبقت شهرتها أقطار المغرب العربي ، حتى وصف صاحبها من قبل شراحها" بأنه الشيخ الفقيه ، البليغ ، الكاتب ، البارع، النحوي، العروضي، اللغوي ، الفرضي، ذو العلوم الرائعة والمصنفات الفائقة" . ومما جاء في منظومة ابن بري التعليمية قوله :(رجز)

الحمد لله الذي أورثنا
كتابه وعلمه علمنا
حمدا يدوم بدوام الأبد
ثم صلاته على محمد
أكرم من بعث للأنام
وخير من قد قام بالمقام
جاء بختم الوحي والنبوءة
لخير أمة من البرية
صلى عليه ربنا وسلما
وآله وصحبه تكرما
وبعد فاعلم أن علم القرآن
أجمل ما تحلى به الإنسان
وخير ما علمه وعلمه
واستعمل الفكر له وفهمه
وجاء في الحديث أن المهره
في علمه مع الكرام البرره
وجاء عن نبينا الأواه
حملة القرآن أهل الله

والملاحظ من خلال مطلع هذه المنظومة أنها واضحة في أسلوبها وتراكيبها سهلة في لغتها ، مما جعلها من المواد التي كانت تدرس في أقطار المغرب العربي ، وخاصة في تونس.

ثم هناك الأديب المقري " أبو عبد الله محمد بن شعيب المجاصي " المتوفى أواسط القرن الثامن الهجري ، وهو تلميذ أبي الحسن علي بن بري ، خلف منظومة في غريب القرآن ، يقول في مطلعها:

الحمد لله المجيد الأعلى
بالمن والفضل الكريم المولى
رب السماوات ورب الأرض
وباعث الناس ليوم العرض
نحمده شكرا على الإنعام
من علينا الرب بالإسلام
ثم صلاة المبدإ المجيد
على النبي الطاهر الرشيد
صلى عليه رب الخلق
كما أتى مؤيدا بالصدق
وبعد حمد الواسع المجيب
فلنبتدئ بالقول في الغريب
مختصرا موجزا في اللفظ
لراغب في درسه والحفظ
فخير لفظ ما أفاد المعنى
قواعد العلم عليه تبنى

وفي هذه الأبيات تستوقفنا ملاحظة أساسية مفادها أن لجوء العلماء إلى النظم كان أساسا لتسهيل عملية الحفظ على الطلبة، هذا الحفظ الذي كان من الشروط الأساسية في التعليم.

تأملات وخواطر

■ الأستاذ: محمد الخضر الريسوني

سيد المرسلين بين نسائه وأهله

سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهله كانت خير مثل للإنسانية الكاملة، والصحبة الكريمة والقوامة الحكيمة وكان يقول عليه السلام: خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي . كان بين أهله أخفض ما يكون جناحا وأبسط ما يكون سلوكا، لا يترفع عن أي عمل، ولا يتعالى عن أي فرد ، كان في بيته بشرا في البشر، يرقع ثوبه ، ويحلب شاته ويخدم نفسه ، حتى لقد سئلت السيدة عائشة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته؟ فقالت : " كما يصنع أحدكم ، يشيل هذا ، ويحط هذا، ويخدم في مهنة أهله ، ويقطع لهم ويكنس البيت ، ويعين الخادم في خدمته . وتبلغ انسانية سيد المرسلين أوجها حين يقدر حداثة سن السيدة عائشة، فيرسل إليها تارة بنات الأنصار يمرحن معها، ويسلينها ، وأخرى : يدعوها إلى مشاهدة صبيان الحبشة يلعبون بحرابهم ، فيسترها بردائه ويقيمها خلفه ، خدها على خده وذقنها على منكبه، حتى تنال حظها من المشاهدة ، وتكون هي التي تنصرف .

ولقد سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم السيدة عائشة فسبقته فتربص بها حتى ترعرعت فدعاها إلى مسابقته، فسبقها فقال ضاحكا: هذه بتلك»

وبلغ من صدق الصلة بينه وبين أهله، ما يصور بعضه قول السيدة عائشة رضي الله عنها في وصفها له وتغنيها بمحاسنه، إذ تقول:

واجمل منك لم ترقط عيني
وأكمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرءا من كل عيب
كأنك قد خلقت كما تشاء

ويعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف نعالج المشاكشات والمناقشات التي تقع أحيانا بين الضرائر باللباقة والحكمة بما يعيد الحياة إلى مجراها الطبيعي ، فهذه أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله عنها تأتي إليه باكية ، حيث قالت:

يارسول الله

إن نساءك يعيرنني ، ويقلن لي : يا يهودية بنت يهوديين، فأجابها صلى الله عليه وسلم قائلا: « هلا قلت : إن أبي هارون ، وإن عمي موسى وان زوجي محمد».

ولم تخل علاقة سيد المرسلين بأمهات المؤمنين من بعض الخلافات العارضة ، وكان موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم أسمى ما يكون تسامحا ولطفا، فلقد استأذن الصديق ذات يوم على رسول الله ، فسمع السيدة عائشة رافعة صوتها على النبي عليه أفضل الصلاة والسلام فقال لها مؤنبا:

. اترفعين صوتك على رسول الله ؟ وحاول الوصول إليها ليؤدبها ، لولا أن حال ، صلى الله عليه وسلم دون ذلك ، فلما خرج الصديق أخذ يتلطف بها ويترضاها ، ويقول:

" الا ترين إلي؟ قد حلت بينك وبين الرجل،

وهكذا حتى سرى عنها ، فلما عاد الصديق رضي الله عنه ، وجده يضاحكها ، فقال:يارسول الله اشركاني في سلمكما كما اشركتماني في حربكما إن هذه الخلافات بسيطة كانت تمر مر الكرام ، ويسود بعدها الصفاء والوفاء في أروع صوره وأكمل حالة ، حتى إنه ، صلى الله عليه وسلم ليقول لعائشة رضي الله عنها:

. إني لأعلم إذا كنت راضية ، وإذا كنت علي غضبى فقالت : من أين تعرف ذلك؟ قال : أما إذا كنت عني راضية ، فإنك تقولين : لا ورب محمد ، وإذا كنت عني غضبى قلت: لا ورب إبراهيم

قالت : أجل والله يارسول الله ما أهجر إلا إسمك وتقصد عائشة رضي الله عنها أنها لا تهجر سوى اللفظ ، في حين تظل روحها السامية متعلقة بذاته الشريفة ، مودة وحبا وإخلاصا وصدقا.

لماذا اختار الدكتور مايكل هارت

إعداد الأستاذ: عبد الله كديرة

1. تمهيد: العظمة الإنسانية الكاملة

حين يريد الله جل جلاله أن يجل بها إنسانا عظيما ويسربله بسربالها السابغ الضافي. ومشيئته سبحانه لا اعتراض عليها من كنود جحود، ولا مؤمن مسلم موقن أنه إلى ربه يعود. فإنه يجتبيه ويصطفيه للنبوة والرسالة.. وقد كان وسيبقى المصطفى المجتبى سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه أعظم العظماء بين بني آدم على الإطلاق، شهد من شهدا أو جحد من جحد .. وقد جحد الجاحدون عظمته فلم تزدد إلا ظهورا على مر الدهور والعصور، وكانوا كالوعل الذي واجه صخرا صلبا راسخا ليوهيَه ويوهنه، فأخذ ينطحه، فلم ينل منه، وأوهى وأوهن قرنيه.. وشهد الشاهدون بعظمته ولها، فلم تزدد عظمته بشهاداتهم، وإنما ثبتت عظمتهم هم في أنفسهم لأنفسهم وللناس، بمقدار ما عرفوا من الحق ونصروه ونشروه .. ومن هؤلاء الذين عرفوا الحق بقدرما وهبوه من العظمة المتواضعة لعظمة أعظم عظماء الإنسانية على الإطلاق، الدكتور « مايكل هارت» فمن هو هذا الرجل؟

2. نبذة موجزة عنه: جاء في الصفحة العاشرة من ترجمة كتابه الذي اختار فيه سيدنا ومولانا وحبيبنا محمدا صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أول المائة اللأوائل من عظماء العالم على الإطلاق »: هو الدكتور مايكل هارت الأمريكي الجنسية والمولد. حصل على لسانس في الرياضيات من جامعة كورنيل عام 1952م وشهادة في القانون من جامعة نيويورك عام 1958م وشهادة ماجستير في العلوم من جامعة أديلفي عام 1969 م ثم حصل على شهادة دكتوراه في الفلك من جامعة برينستون عام 1972. عمل في كركز أبحاث الفضاء في غرين بلت في ميرلاند، وفي المركز القومي لأبحاث طبقات الجو في كولورادو، وفي أكبر مرصد للأفلاك في كاليفورنيا في بامادينيا في مرصد هيل، وهو أحد العلماء المعتمدين في الفيزياء التطبيقية، وهو عضو الجمعية الفلكية وفروعها في علوم الكواكب.. وهو متزوج وله ولدان، فماهو الكتاب الذي ألفه ورتب فيه أعظم الكواكب وأسطع النجوم الإنسانية وأسماها، سيدنا محمدا صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في أعلى رتبة وأشرف مكانة بين عظماء العالم على الإطلاق؟

تعريف موجز بالكتاب في ترجمته العربية:

. عنوانه : المائة الأوائل.

. ترجمه : الأستاذ خالد أسعد عيسى والمحامي أحمد غسان سبانو.

. نشرته دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع بدمشق في ثمان طبعات، أخرها سنة 1419هـ . 1998م واحتفظ الناشر بجميع حقوق الطبع والنشر..

نشر الكتاب في لغته الإنجليزية الأصلية بالولايات الأمريكية سنة 1978م.

. وأما عن المعايير التي راعاها المؤلف في اختيار العظماء وترتيبهم وفق ما اختاره، فهي كالتالي بإيجاز وتركيز

1. تأثير كل منهم في التاريخ الإنساني تأثيرا واسعا دائما...

2. اعتباره شخصية حقيقية لن تتأثر سيرته المعروفة لدينا بالخرافة والأساطير...

3. معرفة اسمه ونسبه وبلده ومحيطه الذي ولد وعاش فيه.

4. عدم اهتمام المؤلف في اختياره وترتيبه بشهرة ولا أصل، وحصر اهتمامه في مدى أثره على الإنسانية ...

5. مراعاة التأثير الدائم على الصعيد العالمي العام دون التأثير على الصعيد المحلي..

6. عدم الاهتمام بالتأثير المتوقع مستقبلا، لعدم القدرة على التنبؤ به..

7. تأثيره العظيم في الحركة التاريخية التي أنشأها أو ساهم فيها.

8. إعطاء الأهمية للمنشئ الأول الرائد..

9. إعطاء الأهمية للشخص العظيم في تأثيره الشخصي المباشر، دون الجماعات أوالهيئات.

10. إعطاء الأولوية خاصة للأشخاص العظماء الذين أثروا تأثيرا عميقا مباشرا مستمرا في التاريخ الإنساني وأثرَوْهُ، ولولا هم لما حدث ما حدث من ذلك التأثير، مثل محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

فماذا قال »: مايكل هارت» عنه؟ ولماذا رتبه الأول بين المائة الأوائل الذين اختارهم من عظماء الإنسانية؟.

4. اعتبارات المؤلف في ذلك وأقواله:

1. « إن محمدا صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في المستويين الديني والدنيوي»

2. « لقد أسس محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أحد أعظم الأديان في العالم، وأصبح أحد الزعماء السياسيين العالميين العظام، ففي هذه الأيام وبعد مرور ثلاثة عشر قرنا تقريبا على وفاته، فإن تأثيره لايزال قويا عارما».

3. « إن أكثر الأشخاص الذين سيقابلهم القارئ في هذا الكتاب، كان لهم ميزات فائقة بكونهم قد ولدوا ودرجوا في مراكز حضارية، وترعرعوا في أحضان أمم ذات سمات ثقافية وسياسية واجتماعية بالغة الأهمية أما محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، فقد ولد عام 570 هـ في مدينة مكة جنوبي شبه الجزيرة العربية، التي كانت في ذلك الوقت منطقة نائية عن الحضارة، وبعيدة عن المراكز الحيوية، سواء كانت تجارية أوفنية أو علمية في العالم. ولما كان قد ذاق مرارة اليتم وهو في السادسة من عمره، فإنه ربي في محيط متواضع وعرف عنه أنه كان أميا...»

4 « ... في قرن شحيح من القتال، استطاعت هذه القبائل البدوية التي كانت تلهمها كلمات الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أن تظفر بتأسيس إمبراطورية تمتد من حدود الهند حتى المحيط الأطلسي، وهي أعظم إمبراطرية شهدها العالم حتى ذلك الوقت...»

5. وبما أن هناك من المسيحيين ضعف عدد المسلمين في العالم، فإنه من الطبيعي أن يبدو غريبا تصنيف محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في مرتبة أعلى من يسوع المسيح عليه السلام، ولكن هنالك سببين رئيسيين لذلك القرار، أولها أن محمداصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لعب دورا أكثر أهمية في تطوير الإسلام من الدور الذي لعبه المسيح في تطوير المسيحية...» ثانيا إن محمدا صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كان مسؤولا عن العقيدة الإسلامية ومبادئها الرئيسية والأدبية والأخلاقية، وبالإضافة إلى ذلك فقد لعب دورا قياديا في الهدي للدين الجديد وتأسيس الفروض الدينية في الإسلام، وهو الذي أنزل عليه القرآن (الكتاب الإسلامي المقدس) وهو مجموعة من الآيات ذات البصيرة النافذة التي أوحيت إليه مباشرة من قبل الله، ومعظم هذه الأقوال دونت وسجلت خلال حياة محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ثم إنها جمعت بشكل رسمي موثوق بعد وفاته بفترة وجيزة، ولذلك فإن القرآن يمثل الأفكار والتعاليم التي أوحاها الله للرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ولكن لم يبق أي أثر يشبه هذا من آثار المسيح. وبما أن القرآن له تأثير على المسلمين يشبه تأثير الكتاب المقدس على المسيحيين، فإن نفوذ محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم من خلال القرآن أصبح ضخما جدا وهائلا. ومن المحتمل أن تأثير محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم على الإسلام أكبر بكثير من التأثير المزدوج للمسيح والقديس بولس على المسيحية، ولهذا فإنه من وجهة النظر الدينية الصرفة يبدو أن محمدا صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كان له تأثير على البشرية عبر التاريخ كما كان للمسيح.

وفوق ذلك فإن محمدا صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم يختلف عن المسيح بأنه كان زعيما دنيويا فضلا عن أنه زعيم ديني، وفي الحقيقة إذا اخذنا بعين الاعتبار القوى الدافعة وراء الفتوحات الإسلامية، فإن محمدا صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم يصبح أعظم قائد سياسي على مدى الأجيال...»

6. « هنالك كثير من الحوادث التاريخية الهامة من المحتمل أن يقول المرء إنهاحتمية الحدوث، وكانت ستحدث رغم عدم وجود الزعيم الذي قادها» ....»

ولكن هذا لا ينطبق على الفتوحات العربية، وذلك لأنه لم يحدث أي شيء مشابه لهذا من قبل محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وليس هنالك من سبب يحدونا للاعتقاد أنها كانت سو ف تحرز بدونه»

7. فابتداءً من العراق حتى مراكش (المغرب) تمتد سلسلة كاملة من الأمم العربية يوحدها ليس فقط الدين الإسلامي، ولكن أيضا اللغة العربية والتاريخ والثقافة المشتركة، وإن مركز القرآن في الدين الإسلامي وكونه مكتوبا باللغة العربية، كان له أكبر الأثر في منع تفتت اللغة العربية إلى لهجات لا يفهم بعضها بعضا، مما كان حدوثه ممكنا لولا وجود القرآن خلال الثلاثة عشر قرنا الماضية...»

8. ومن هذا نرى أن الفتوحات العربية التي تمت في القرن السابع استمرت لتلعب دورا هاما في تاريخ البشرية حتى يومنا هذا، وأن هذا الاتحاد الفريد الذي لا نظير له للتأثير الديني والدنيوي معا، مما يخول محمدا صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أن يعتبر أعظم شخصية مفردة ذات تأثير في تاريخ البشرية...»

5 خاتمة: لا أجد مسك ختام لهذه المقتبسات من كتاب الدكتور "مايكل هارت" في ترجمته العربية، إلا الآية الأخيرة 129 من سورة التوبة: لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمومنين رؤوف رحيم، فإن تولوا فقل حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » ولله الأمر من قبل ومن بعد.

كيف نتعامل مع ثراثنا الفقهي؟!

إعداد
الدكتورة
بشرى
الشقوري

الحلقة الثالثة

■ فأضحى عدم التمييز في التراث الفقهي بين ماهو شرعي مستمد شرعيته من قداسة النص الديني وبين ماهو بشري وتاريخي ، من الإشكالات والسلبيات التي طبعت الفكرالاجتهادي الفقهي سيما بعد القرن الخامس الهجري عندما أغلق باب الاجتهاد ، فسيطر التشيع المذهبي، وانتهى ماسمي ب " الاجتهاد المطلق"

ولم يقتصر الأمر على الخلط وعدم التمييز بين الحكم القطعي المستنبط مباشرة من النص وبين الحكم الظني المجتهد فيه ، وإنما أضحت كتب المذاهب التراثية بمثابة كتب لها من الشأن والقدسية مثل ما للقرآن الكريم ، الكتاب المقدس ، فأضحت هذه المصنفات لسان حال الشريعة . فلا غرو بعد هذا أن تقتصر الأبحاث والمناقشات الفقهية عليها، ولا تتعداها إلى النصوص الدينية التي هي في الحقيقة الأصل والمرجع الوحيد لها . كل ذلك حصل . ويحصل . تحت ذريعة انعدام مؤهل مستوف لأدوات النظر الاجتهادي التي تخول له التعامل المباشر مع النصوص المقدسة وحتى داخل المذهب الواحد فرض الاقتصار على " الراجح والمشهور" من المذهب دون سواهما . وهكذا ، ومع تراجع الحركة الاجتهادية ، اكتسب الاجتهاد الفقهي سلطة إلزامية.

من سلطة النص إلى سلطة الفقهية:

مع توالي الزمن وسيطرة روح التقليد وإغلاق باب الاجتهاد حل النص الفقهي أو الاجتهاد الفقهي . الذي هو في الحقيقة عبارة عن محاولة المجتهد فهم النص الديني " موظفا" في ذلك مختلف الآليات الاجتهادية من أجل تنزيله على الواقع العلمي . محل النص الإلهي المقدس.

ولم يقتصر الأمر على طبع الحكم المستنبط بطابع القداسة والإلزامية بل تعداه إلى أن صارت أقوال الفقهاء واجتهاداتهم فيما بعد تسمى " نصوصا" أو كما يقول الزركشي (ت 794) : نص الشافعي ، فيقال لألفاظه نصوص باصطلاح أصحابه قاطبة" ويقول النووي (ت 626) هـ :" وحيث أقول النص، فهو نص الشافعي رحمه الله" . تلك النصوص التي لا ينبغي تجاوزها بأي حال من الأحوال.

بل إن آليات فهم النص / الوحي ستطبق على الفقيه ، وسيتم توظيف القاعدة المعروفة:" لا اجتهاد في مورد النص" توظيفا يقوم على خلط واضح بين مفهومي النص في أصل استعماله وبين ما جرى تداوله في اصطلاح الأصوليين . يقول النووي :" وله (أي المفتي) أن يفتي فيما لانص فيه لإمامه بما يخرجه على أصوله ، هذا هو الصحيح الذي عليه العمل وإليه مفزع المفتين من مدد طويلة . فليس للمفتي أن يجتهد مع ورود النص لإمامه . والنص هنا بمعناه المعاصر . وإنما يخرجه على أصول، إمامه ، أو بالقياس!

إن هذا المنحى في التفكير شكل أزمة حقيقية بخصوص التعامل مع النص الديني ، تأويلا واستدلالا . وإثباتا ، حيث وقع مزج ودمج بين التاريخي ، والثقافي والنسبي ، وبين الكلام الإلهي المطلق عن الزمان ، وتعدى الأمر إلى توظيف كثير من وسائل وآليات ثبوت نصوص السنة المتفق عليها لدى علماء الحديث نفسها على نص الفقيه ، كما أنه وظفت نفس طرق التعارض والترجيح بين النصوص الدينية، فأضحت تطبق أيضا على ترجيح أقوال الإمام أحدهما على الأخر .. كما طبقت نفس القواعد الأصولية التي استعيرت من نصوص الشارع/ الوحي وطبقت على " نص الفقيه" هذه القواعد التي مثلت مصدر التشريع بالنسبة للمقلد.

كل ذلك أدى إلى اكتساب نص الفقيه سلطة توازي سلطة النص الإلهي ، بل أضحى نص الفقيه في حق المقلد كنص الشارع في حق المجتهد المستقل ، ومن ثم فإن مصدر التشريع بالنسبة للمقلد هو نصوص الفقيه. يقول النووي:" ثم يتخذ (أي المجتهد المقلد) نصوص إمامه أصولا يستنبط منها كفعل المستقل بنصوص الشرع".

وسيؤدي التجاهل الواضح للمسافة الفاصلة بين النصين والخلط بين التاريخي والمطلق إلى دمج السلطتين وتطابقهما، وسينتج عنه في الأخير تجاوز حقيقي للنص الأصلي، واستبعاده في الخطاب الفقهي، بحيث سيشكل النص الفقهي المنطلق المركزي الذي لا يمكن تخطيه في الاجتهاد الفقهي . وهو المعنى الذي عبر عنه " الحسن الكرخي "(وهو من كبار ائمة الحنفية) بقوله:" كل نص يخالف ما عليه أصحابنا . يعني الحنفية. فهو إما منسوخ أو مؤول..

تجليات الخلط في تراثنا الفقهي بين المقدس والتارخي

إذا كان من المسلم به القول بأن تراثنا الفقهي، من وجهة النظرة الإسلامية ، هو غير مقدس، أمكن لنا القول بأن هذا التراث قابل للمراجعة ، على خلاف النصوص المقدسة المتمثلة بنصوص القرآن وأحاديث السنة الصحيحة.

إلا أن نفي القداسة عن التراث لا يعني بأي حال من الأحوال الاستهانة والاستخفاف به ، لأن احترام التراث هو المقدمة الضرورية لتحقيق مراجعة نقدية حقيقية.

كما أن هذه المراجعة للتراث لا تعني بأي حال من الأحوال الانقلاب على "التاريخي" ، بل تعني تنقية التراث وتمحيصه من كل السلبيات التي تراكمت عليه مع مرور الزمن . ويبقى للتراث تلك الوظيفة الجمالية والنفسية..

ويتجلى في رأينا الخلط بين التاريخي والمقدس في تراثنا الفقهي في عدة مجالات لعل أبرزها :

. في مجال السياسة الشرعية حيث تحدثنا كتب الفقه عن نظام الحكم في الإسلام ، وأحكام الجهاد والحرب، وتقسيم العالم إلى دار حرب ودار إسلام ..(مثل كتب الأحكام السلطانية، وكتب الخراج ، والأموال) . كما نجدها تتحدث عن شروط الحاكم وعن نظام الوزارة كوزارة تفويض، ووزارة تنفيذ ، وهي تشخص بذلك تاريخ نظام الحكم في التاريخ الإسلامي وترصد مرحلة من مراحل تطور الفكر السياسي في مرحلة تاريخية محددة غير أن الكثيرين يخلطون في هذا الجانب بالذات بين الأحكام والثوابت التي هي من صلب الشريعة الإسلامية والواقع التاريخي الذي كان الفقهاء ينظرون له.

. في فقه المعاملات : هناك الكثير من مسائل " الفقه المعاملاتي" التي يختلط فيها التاريخي بالمقدس، ويشمل هذا الجانب العديد من المسائل المتعلقة بفقه العقود وبعض المعاملات التجارية ، وتصنيف أنواع الشركات وبعض الشروط التي تشترط لصحتها ، التي هي في الحقيقة شروط وتقسيمات اجتهادية صيغت تحت تأثير الظرفية التاريخية ، وتتعلق بمستوى تطور الواقع الاقتصادي ، وغير مستندة إلى نصوص قطعية من الكتاب والسنة.

. في العلاقات الاجتماعية : إن المستقرئ لأحكام الأسرة مثلا ، يجد أن الشريعة الإسلامية قد اهتمت أيما اهتمام بمؤسسة الأسرة وكيانها ، فركزت تركيزا شديدا على قداسة رباط الزوجية ، ومع ذلك نجد جمهور الفقهاء عبر العصور المختلفة في جل تنظيراتهم الفقهية قد توسعوا في إيقاع الطلاق، حتى بلغ الأمر عند بعضهم حد القول بوقوع الطلاق قبل انعقاد عقد الزواج ، بذريعة الاحتياط في الدين ومخافة الوقوع في الزنا. ولعل أظهر دليل على ذلك تلك المساحة الواسعة التي يحتلها كتاب الطلاق ضمن أبواب الفقه الإسلامي . ولا شك أن هذه الفلسفة قد أملتها ظروف تاريخية معينة أيضا.

وفي قضايا المرأة يحتاج التمييز بين التاريخي والشرعي إلى جهد كبير مقارنة مع غيره من المباحث والأبواب ، لأن الكثير من الأحكام المتعلقة بهذا الجانب قد اختلط فيها التاريخي بالمقدس حتى غدى التمييز بين الجانبين من الصعوبة بمكان.

فإلى جانب الأحكام الجزئية الواردة في الكتاب وفي الثابت من السنة ، وردت أحكام كلية تشكل إطارا للنظام الأسري ، وضمنها ينبغي أن تفسر النصوص الجزئية . فمثلا وردت آيات كثيرة تأمر بالرجوع إلى المعروف في أحكام الأسرة ،.. وما من شك أن مفهوم " المعروف" يخضع لمتغيرات الظروف الاجتماعية وملابساتها.

من هنا نستطيع القول بأن الثقافة في هذا المجال بالذات ، قد أثرت إلى حد بعيد على تفسير نصوص الشريعة ، حيث إن النصوص الكلية كالعدل، والمعروف، والمصلحة والمفسدة ورفع الحرج والعسر .. يتأثر قطعا تطبيقها على جزئيات وقائع الحياة بنظرة المجتمع إليها سواء بالقبول أو الرفض...

من هذا المنطلق كان للواقع الاجتماعي أثر ملحوظ على تفسير بعض النصوص المتعلقة بالمرأة ، وتقرير أحكام تبدو استمرارا لما كان سائدا في المجتمع قبل نزول رسالة الإسلام ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك : تحديد مفاهيم الولاية على المرأة في الزواج ، و" قوامة" الزوج في بيت الزوجية ، والصيغ التي اعتبرت صالحة لإنشاء الطلاق...

إن كثيرا من الأحكام والاجتهادات المدونة في بطون الكتب الفقهية، وبحكم طول فترة التطبيق والممارسة ، يظن أنها ثابتة بنصوص قطعية ، أو أنها من قبيل ما انعقد الاجماع عليه، إلا أن المتتبع لهذه الآراء يدرك أنها على خلاف ذلك من ذلك مثلا : الولاية على المرأة في الزواج ، وتطليق الزوجة التي أسلمت من زوجها غير المسلم ، وإلزام المتوفى عنها بالحداد عن زوجها فترة العدة التي هي أربعة أشهر وعشرة أيام، وعدم انتساب الولد من الزنا إلى أبيه ، ومنع التوارث بين مسلم وغير مسلم . وأمثلة أخرى كثيرة تعتبر من قبيل الأمورالمحسومة ، والحال أن الخلاف بشأنها وجد منذ عصر الصحابة والتابعين ، والممارسة وحدها هي التي رفعت رأيا إلى ثوابت القطعية وأهملت آخر إلى أن أصبحت إثارته بدعا من القول.

الكتب الفقهية التراثية نظرة عامة

إن طبيعة المادة الفقهية التي تحويها الكتب التراثية تتميز بخصائص وسمات سواء من الناحية المنهجية أو الشكلية أو على مستوى المضمون.

فعلى مستوى طبيعة مضمون المادة الفقهية، نجدها تتنوع من مصنف إلى آخر ، حيث نقف على مصنفات تخصصت في علم الفقه ، وألفت في هذا الميدان بشكل خاص ، واشتملت على مختلف أبواب الفقه أو كلها ، ابتداءا من أبواب الطهارة والعبادات ثم المعاملات وأحكام الجهاد والقضاء وأحكام النكاح والطلاق وهكذا .. ولعل أقدم وأشهر الكتب المصنفة في هذا النوع من التصنيف كتاب " الأم " للإمام الشافعي ، وكتاب " المدونة" برواية محمد بن سحنون للإمام مالك ، وغيرهما.

من أنشطة علماء فرع الدار البيضاء
بمناسبة عيد المولد النبوي لعام 1426

بمناسبة المولد النبوي الشريف لعام 1426 ينظم فرع رابطة علماء المغرب بولاية الدار البيضاء الكبرى سلسلة من الندوات بمشاركة مجموعة من العلماء، موزعة على بعض عمالات الولاية، تحت عنوات البعثة المحمدية وآثارها،وفق البرنامج التالي:

تاريخ الندوة	مكانها	العلماء المشاركون
بين العشاءين من يوم الجمعة 06 ربيع الأول 1426 موافق 15 أبريل 2005	مسجد محمد السادس عمالة أنفا	عمر محسن رضوان بنشقرون حسن أمين
بين العشاءين من يوم الجمعة 06 ربيع الأول1426 موافق 15 أبريل2006	مسجد محمد الخامس عمالة عين السبع الحي المحمدي	المختار بصير عبد الرحيم الراوي محمد جناح
بين العشاءين من يوم السبت 07 ربيع الأول 1426 موافق 16 أبريل 2005	مسجد حي الأمل (علي الكتاني) عمالة الفداء	حسن آمين الحسين مفراح الحسين وشبر
بين العشاءين من يوم الجمعة 08 ربيع الأول 1426 موافق 17 أبريل 2005	مسد النواصر عمالة النواصر	رضوان بنشقرون عمر محسن حسن أمين
بين العشاءين من يوم الجمعة 20 ربيع الأول 1426 موافق 29 أبريل 2005	مسجد الأمنية بدوار بوعزة عمالة الحي الحسني	المختار بصير الحسين مفراح أحمد حرير
بين العشاءين من يوم السبت 21 ربيع الأول 1426 موافق 30 أبريل 2005	مسجد باكستان عمالة سيدي عثمان	المختار بصير عبد العزيز الإدريسي مصطفى ناجم
بين العشاءين من يوم الأحد 22 ربيع الأول 1426 موافق فاتح ماي 2005	مسجد بني يخلف (اللوبزية عمالة المحمدية	الحبيب احسايين عمر بنحماد محمد الوكيلي

حصص شهر ربيع الأول لعام 1426 لطول وعرض مدينتي الرباط وسلا بتوقيت جرينويش

الأيام	ربيع الأول 1426	أبريل ماي 2005	الصبح	الشروق	الظهر	العصر	المغرب	العشاء
			س : د	س : د	س : د	س : د	س : د	س : د
الأحد	1	10	30:4	00:6	33:12	06:4	58:6	17:8
الاثنين	2	11	29:4	59:5	33:12	06:4	59:6	18:8
الثلاثاء	3	12	27:4	57:5	33:12	06:4	00:7	19:8
الأربعاء	4	13	26:4	56:5	32:12	06:4	01:7	20:8
الخميس	5	14	24:4	55:5	32:12	06:4	01:7	20:8
الجمعة	6	15	23:4	54:5	32:12	06:4	02:7	21:8
السبت	7	16	21:4	52:5	32:12	06:4	03:7	22:8
الأحد	8	17	20:4	51:5	31:12	06:4	04:7	23:8
الاثنين	9	18	18:4	50:5	31:12	06:4	05:7	24:8
الثلاثاء	10	19	17:4	49:5	31:12	06:4	05:7	25:8
الأربعاء	11	20	15:4	48:5	31:12	07:4	06:7	27:8
الخميس	12	21	14:4	46:5	31:12	07:4	07:7	28:8
الجمعة	13	22	12:4	45:5	30:12	07:4	08:7	29:8
السبت	14	23	11:4	44:5	30:12	07:4	08:7	30:8
الأحد	15	24	09:4	43:5	30:12	07:4	09:7	31:8
الاثنين	16	25	08:4	42:5	30:12	07:4	10:7	32:8
الثلاثاء	17	26	06:4	41:5	30:12	07:4	11:7	33:8
الأربعاء	18	27	05:4	40:5	30:12	07:4	12:7	34:8
الخميس	19	28	03:4	38:5	29:12	07:4	12:7	35:8
الجمعة	20	29	02:4	37:5	29:12	07:4	13:7	36:8
السبت	21	30	01:4	36:5	29:12	07:4	14:7	37:8
الأحد	22	ماي	59:3	35:5	29:12	07:4	15:7	38:8
الاثنين	23	2	58:3	34:5	29:12	07:4	15:7	39:8
الثلاثاء	24	3	57:3	33:5	29:12	07:4	16:7	40:8
الأربعاء	25	4	55:3	32:5	29:12	07:4	17:7	41:8
الخميس	26	5	54:3	31:5	29:12	07:4	18:7	42:8
الجمعة	27	6	53:3	30:5	28:12	07:4	19:7	43:8
السبت	28	7	51:3	30:5	28:12	08:4	19:7	45:8
الأحد	29	8	50:3	29:5	28:12	08:4	20:7	46:8
الاثنين	30	9	49:3	28:5	28:12	08:4	21:7	47:8

نفحات المولد ومطلع الربيع

شعر: الأستاذ الطاهر العروسي

حمل الربيع إلى رياض النرجس
بشرى النبوة في نهار مشمس
اوراقها وردية ومدادها
مسك يفوح على جميع الأنفس
والزهر ينشر من شذاه روائحا
والعطر يعبق في بساط المجلس
والطير في أوكارها تشدوا
على غصر النغا مثل الجواري الكنس
عنت فاطربت النفوس بشدوها
وحنانها ياحسن صوت مؤنس
رقصت غصون البان عن نغماتها
في خفة ورشاقة ونحمس
والروض في مرح يتيه تدللا
متحليا بحلي الجمال السندسي
يزهو بنور لاح في عليائه
فوق الروابي بصبحه المتنفس
قد ايقظ الأرواح بعد نعاسها
فتنبهت وكانها لم تنعس
ولى الظلام بجيشه متقهقرا
وطغى الصباح على الظلام الحندس
فاستبشرت فئة فكانت أمة
عرفت كابرز عنصر لم يبخس
قد آمنت بعقيدة في عالم
قد كان يرسف في ظلام أملس
صغت لأمر الله يصدح عاليا
في الكون جاء من المقام الأقدس
خرست جهارا السن وأسنة
بعد الهداية كالجماد الأخرس
نور النبي أطل من أم القرى
عم المدينة ، ثم بيت المقدس
فهدى ونور محمد يكسو الورى
ومن الذي من نوره لم يكتس؟

أصدر الدكتور يوسف الكتاني كتابا جديدا بعنوان:

"كي تعود جامعة القرويين أم الجامعات المغربية"

أصدر الدكتور يوسف الكتاني كتابا قيما تحت العنوان السابق، يوجه فيه انظار الامة المغربية الى ذلك الصرح العتيد الخالد، داعيا فيه إلى العمل على إعادة الاشعاع والتجديد والقوة إليه، لينطلق من جديد ينير لأمتنا دروبها، ويشع على أنحائها وعقولها ، علما وحكمة ، ونبوغا وتفتحا، وليحقق لنا اليوم ما حققته جامعة القرويين من رفعة ونهضة ومجد وتطور وليعيد للشريعة مكانتها في سائر المجالات.

لقد رسم المؤلف في كتابه الجديد مشروعا إصلاحيا ثوريا تجديديا لجامعة القرويين ، حسب خطوات عقلانية منتظمة محسوبة تجعلها على سكة التطوير والانبعاث ، وتعيد إليها اعتبارها كأم للجامعات المغربية العتيدة.

ميثاق
الرابطة
صحيفة أسبوعية جامعة

العدد 1112
السنة39
الجمعة 13 ربيع الأول 1426 هـ
الموافق 22 أبريل 2005 م

المدير المسؤول:
الأمين العام بالنيابة
الشيخ ماء العينين لارباس

مدير النشر:
إدريس كرم

رئيس التحرير:
محمد الخضر الريسوني

التحرير:
محمد القاضي
مصطفى ودادي

الثمن:3 دراهم

الاشتراكات السنوية
داخل المغرب: مائة وخمسون درهما
رقم الإيداع القانوني: 1994/160
الترقيم الدولي:ISSN: 4348

عنوان البريد الالكتروني:
rabitat @iam.net-ma
موقع الانترنيت
www.rabitat. ma

الحساب البنكي:25201015549.01
وكالة بنك الوفاء-حي أكدال - الرباط

التصفيف والإخراج الفني:
ميثاق الرابطة
العنوان:107- شارع فال ولد عمير.
رقم 7- أكدال - الرباط
الهاتف: 51 03 67 037
الفاكس: 93 45 67 037
السحب:
مطبعة نداكوم - الرباط- المغرب

ترتيب المواد لا يخضع إلا للمقتضيات الصحافية والتقنية

ميثاق الرابطة

العدد: 1112 الجمعة 13 ربيع الأول 1426 هـ .الموافق 22 أبريل 2005م

قراءة في قسم المقاصد من "الموافقات" للشاطبي

■ إعداد الدكتور: محمد منصيف العسري

الحلقة الثالثة

وقد عالج الشاطبي انطلاقا مما سبق قضية الإخلاص والتشريك في الأعمال عبادات وعادات، ومن النتائج التي وصل إليها في ذلك أن حظوظ النفوس المختصة بالإنسان لايمنع اجتماعها مع العبادات، إلا ما كان بوضعه منافيا لها. أما مالا منافاة فيه فكيف يقدح القصد إليه في العبادة؟ هذا لاينبغي أن يقال. غير أنه لاينازع في أن إفراد قصد العبادة عن قصد الأمور الدنيوية أولى، ولذلك إذا غلب قصد الدنيا على قصد العبادة كان الحكم للغالب، فلم يعتد بالعبادة. فإن غلب قصد العبادة فالحكم له (الموافقات ج2ص221).

وبعد هذا انتقل في المسألة السابعة من هذا النوع الرابع إلى موضوع النيابة في الأعمال، وخلاصة ماذكره في ذلك أن صحة النيابة في الأعمال رهينة بتحقيق حكمتها أو مقصودها، فحيثما تحققت الحكمة من النائب صحت النيابة، وهذا يكون في الأعمال التي هي من قبيل المعاملات، كعقد العقود وحلها وأداء الإلتزامات المالية. وحيثما توقف تحقيق الحكمة على المكلف الأصلي لم تصح النيابة، كما هو الشأن بالنسبة للعبادات (الموافقات ج2ص227.228).

ويجدر التنبيه هنا على أن العلماء قد اختلفوا في النيابة فيما كان من قبيل العبادات، فذهب الإمام مالك وأصحابه إلى المنع مطلقا، وذهب ابن تيمية في أحد أقواله إلى الإجازة مطلقا، وهو مايفهم كذلك من موقف ابن حزم الذي خطأ من أبطلوا النيابة في الحج والصوم والصلاة ورد عليهم. وذهب جمهور العلماء إلى جواز النيابة في الحج، وهو المذهب الراجح الذي دلت عليه النصوص، من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول: لبيك عن شبرمة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: من شبرمة؟ قال: أخ لي، أو قريب لي. قال: حج عن نفسك ثم عن شبرمة (أخرجه أبو داود وابن ماجة، قال البيهقي: اسناده صحيح)، على أن من هؤلاء من منع النيابة في الصوم كالشافعي والثوري وأبي حنيفة، ومنهم من أجازها في صوم النذر خاصة كأحمد، وهو قول ابن عباس، وهو الرأي الراجح على أن يكون النائب واليا، لحديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من مات وعليه صيام صام عنه وليه" (أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود).

ومن المسائل التي استطرد الشاطبي في التنبيه عليها في إطار كلامه في هذا النوع الرابع من المقاصد، ماذكره في المسألة السابعة عشرة أن المفهوم من وضع الشارع أن الطاعة أو المعصية تعظم بحسب عظم المصلحة أو المفسدة الناشئة عنها. وقد علم من الشريعة أن أعظم المصالح جريان الأمور الضرورية الخمسة المعتبرة في كل ملة، وأن أعظم المفاسد مايكون بالإخلال عليها.

ثم نص في المسألة الثامنة عشرة على أن الأصل في العبادات بالنسبة إلى المكلف التعبد دون الإلتفات إلى المعاني، وأصل العادات الإلتفات إلى المعاني (انظر الموافقات ج2ص298.300)، ومقصوده في هذه المسألة الأخيرة أن مايتعلق بالمقاصد والتعمق فيها إنما يحتاج إليه في الغالب عند الإجتهاد في مجال المعاملات والعادات، بخلاف مجال العبادات التي يغلب فيها جانب الإتباع وعدم البحث عن مقاصدها إلا ما كان منصوصا وظاهرا.

ومن المسائل التي نبه عليها الشاطبي أيضا أن كل ماثبت فيه اعتبار التعبد فلا تضريع فيه، أي لا قياس فيه، وكل ماثبت فيه اعتبار المعاني دون أن يثبت التعبد فلابد فيه من اعتبار التعبد، وليس المراد بهذا التعبد الأخير التعبد بالمعنى الخاص المتقدم الذي يجب أن لايدخله القياس والتفريع، بل المراد به أن يكون لله فيه حق، إذا قصده المكلف بالفعل أثيب، وتكون مخالفته قبيحة يستحق العقاب عليها (الموافقات ج2ص310مع هامشها)، وحاصل ما أراد بيانه هنا أن العبادات لاقياس فيها، وأن العادات لاتخلو عن التعبد.

2. مقاصد المكلف في التكليف:

هذا القسم الثاني من المقاصد يخص إرادة المكلف وهو قسم أساسي فبدونه يبقى القسم الأول الخاص بمقاصد الشارع مجرد فكرة في الأذهان، وعلى هذا فإن القسم الثاني الذي نحن بصدده هو الذي ينزل بتلك الفكرة إلى مجال الممارسة في حياة المكلف، وعلى هذا الأساس فصل الشاطبي القول في مقاصد المكلف وعلاقتها بمقاصد الشارع.

وقد افتتح هذا القسم بتذكيره أن الأعمال بالنيات، والمقاصد معتبرة في التصرفات من العبادات والعادات، وأن الأدلة على هذا المعنى لاتنحصر، ثم ساق مجموعة من الأدلة الدالة على ذلك (انظر الموافقات ج2ص323 ومابعدها).

وبعد هذا التمهيد شرع في تفصيل مجموعة من القواعد، أولها ما أورده في المسألة الثانية من هذا القسم، وذلك أن قصد الشارع من المكلف أن يكون قصده في العمل موافقا لقصده في التشريع، والدليل على ذلك أن الشريعة موضوعة لمصالح العباد، فالمطلوب من المكلف أن يجري على ذلك في أفعاله، كما أن قصد الشارع. كما رأينا آنفا. المحافظة على الضروريات وما رجع إليها من الحاجيات والتحسينات، وهو عين ما كلف به العبد فلابد أن يكون مطلوبا بالقصد إلى ذلك، لأن الأعمال بالنيات، ثم إنه لما كان الإنسان مستخلفا عن الله كان المطلوب منه أن يكون قائما مقام من استخلفه يجري أحكامه ومقاصده مجاريها (الموافقات ج2ص331.332).

ثم سطر القاعدة الثانية ضمن المسألة الثالثة بقوله: كل من ابتغى في تكاليف الشريعة غير ماشرعت له فقد ناقض الشريعة، وكل من ناقضها فعمله في المناقضة باطل، فمن ابتغى في التكاليف مالم تشرع له فعلمه باطل (الموافقات ج2ص333).

وكما هو واضح من هاتين القاعدتين أن الأمر الضابط لمقاصد المكلفين، الذي يمكننا أن نتعرف به على المصالح التي يجوز للمكلف قصدها من وراء الأمور التي يتعبد بها والمصالح التي لايجوز له قصدها، هو أن ينظر العبد في مقاصد الشارع فيجعل المكلف قصده محكوما بمقاصد الشارع، فالمقاصد الموافقة لقصد الشارع مقاصد صحيحة والمقاصد المخالفة لمقاصد الشارع من التكاليف غير صحيحة.

وفيما بعد وضع الشاطبي في المسألة الثامنة من هذا القسم الثاني الخاص بمقاصد المكلف القاعدة الثالثة، التي بين فيها أنه لكي يكون قصد المكلف موافقا لقصد الشارع، فللمكلف في الدخول تحت التكاليف ثلاثة اختيارات مشروعة: الاختيار الأول، أن يقصد بها مافهم من مقصد الشارع في شرعها، فهذا لا إشكال فيه ولكن ينبغي أن لايخليه من قصد التعبد. الإختيار الثاني: أن يقصد بها ما عسى أن يقصده الشارع مما اطلع عليه أو لم يطلع عليه، وهذا أكمل من الأول الاختيار الثالث، أن يقصد مجرد امتثال الأمر، فهم قصد المصلحة أو لم يفهم، فهذا أكمل وأسلم (الموافقات ج2ص373.374).

ومن القواعد التطبيقية التي ذكرها الشاطبي أثناء معالجته لهذا القسم الخاص بمقاصد المكلف ماأورده ضمن المسألة الرابعة منه عن حالات الموافقة والمخالفة بين المكلف والشارع، وحكم كل حالة، وهي تنحصر في ست حالات نلخصها فيما يلي: الحالة الأولى، أن يكون المكلف موافقا للشارع قصدا وفعلا، فلا إشكال في صحة هذا العمل. الحالة الثانية، أن يكون مخالفا للشارع قصدا وفعلا، فلا إشكال في بطلان هذا العمل، الحالة الثالثة، أن يكون موافقا للشارع في الفعل مخالفا له في القصد وهو لايعلم بالموافقة الفعلية، فهو آثم في حق الله بسوء قصده وغير آثم في حق العباد لعدم إتيانه مفسدة ولاتفويته مصلحة. الحالة الرابعة، مثل السابقة إلا أنه يكون عالما بالموافقة، فهذا أشد من الذي قبله، لأنه جعل الموضوعات الشرعية وسائل لأمور أخرى لم يقصد الشارع جعلها لها، فيدخل تحته النفاق والرياء والحيل على أحكام الله، وذلك كله باطل. الحالة الخامسة، أن يكون مخالفا للشارع في الفعل موافقا له في القصد مع علمه بالمخالفة الفعلية، فهذا هو الإبتداع في الدين، كإنشاء العبادات المستأنفة والزيادات على ماشرع، والذي يتحصل هنا أن جميع البدع مذمومة لعموم الأدلة في ذلك. وقد فصل الشاطبي الكلام في البدع وذمها وبيان سوء منقلب أهلها في كتابه "الإعتصام" وهذا الموقف من البدع وأهلها هو الذي كان يتمسك به أئمة السلف حيث كانوا حريصين على اتباع السنن مع كراهيتهم للمحدثات والبدع. الحالة السادسة، مثل سابقتها إلا أنه يكون غيرعالم بالمخالفة، ففي هذه الحالة وجهان: الأول كونه موافقا في قصده ونيته، وأما مخالفته فجاءت عن غير قصد وعن غير علم منه. والثاني كونه مخالفا عمليا للشارع، ولهذا فإن قصده لم يحقق قصد الشارع الذي لايتحقق بمجرد النيات وإنما يتحقق بالفعل والفعل هنا مخالف. وقد مال الشاطبي في هذه الحالة نحو اعتبار الوجهين معا بحيث يكون لكل من الموافقة القصدية والمخالفة الفعلية أثره في الحكم على الفعل ومايترتب عنه، وأورد لذلك مجموعة من الأدلة، منها أن عمدة مذاهب الصحابة والأئمة كمالك اعتبار الجهل في العبادات اعتبار النسيان على الجملة (انظر الموافقات ج2ص337.347).

ومن القضايا التي عالجها الشاطبي تحت هذا القسم الثاني المتعلق بمقاصد المكلف وفصل الكلام في ضوابطها في مسألة مستقلة هي المسألة الخامسة، قضية مايقوم به المكلف من أفعال تكون مصلحة له ومضرة بغيره، وقد وضع بهذا الصدد مجموعة من الضوابط لوجوه التعارض أو عدمه بين مصالح ومفاسد الفرد، ومصالح ومفاسد غيره، مراعيا في كل ذلك القصد وعدمه (انظر الموافقات ج2ص348.364).

وختم الشاطبي كلامه في هذا القسم الثاني الذي نحن بصدده بتفصيل القول في قضية هامة تخص التحايل على الأحكام الشرعية، حيث يكون المكلف موافقا للشارع مع مخالفته له في القصد تحايلا على أحكام الدين، وقد قرر بهذا الشأن أن الأعمال الشرعية ليست مقصودة لأنفسها وإنما المقصود بها المصالح التي شرعت لأجلها، ولما كانت الحيل مفوتة للمصالح المقصودة من التشريع فإنها ممنوعة، وعلى هذا فإن الحيل التي لا تناقض مصلحة شرعية فهي جائزة، كالنطق بكلمة الكفر إكراها عليها من باب التحيل بها في إحراز النفس من غير اعتقاد لمقتضاها. وأما ما كان من الحيل محتملا للوجهين فقد اختلف فيه (انظر الموافقات ج2ص385ومابعدها).

ثم عقب الشاطبي على كل ماأورده في هذا القسم بيان ألحقه به يتعلق بالجهات التي تعرف بها مقاصد الشارع، وهي تتلخص في: مجرد الأمر والنهي الإبتدائي التصريحي، واعتبارعلل الأمر والنهي بمسالكها المعروفة، واعتبار المقاصد التابعة والخادمة للمقاصد الأصلية، وسكوت الشارع مع توفر الداعي للتشريع (انظر الموافقات ج2ص391ومابعدها).

ولابد في الأخير من الإشارة إلى أن كلام الشاطبي في المقاصد لم يكن منحصرا في هذا الجزء أو القسم من "الموافقات" الذي خصصه للمقاصد وجعله تحت عنوان "كتاب المقاصد"، وإنما نجد كلامه في المقاصد وبيانها وحضورها في آرائه وتحليله للقضايا الأصولية في جميع أجزاء "الموافقات" بالإضافة إلى ما جاء منها مفصلا أيضا في ثنايا كتابه "الإعتصام" المكون من جزأين.

وإذا كان الشاطبي من الأعلام الذين لم تقدر جهودهم حق قدرها، ولم تتابع الأعمال التي شرعوا في القيام بها، ولم تستثمر حق الإستثمار النتائج التي بلغوها، منذ أن حرر كتاباته في القرن الثامن الهجري، إلى أن ظهرت في العصر الحديث والمعاصر بعض الإجتهادات في مجال الفكر والتنظير المقاصدي التي حاول أصحابها الإستفادة من التراث الذي تركه الشاطبي في هذا المجال ومتابعة السير في النهج الذي وضع أسسه... فإن الحاجة مازالت قائمة لتفعيل مقاصد الشريعة في عصرنا الحاضر، في سبيل المساهمة في إيجاد الحلول لبعض المشكلات المعاصرة في ضوء الفكر والإجتهاد المقاصدي، سواء منها مايتعلق بالمجال التعبدي أو المجال المالي أو المجال الطبي أو غيرها، ولعل مايخدم تحقيق هذا الهدف استحضار الأهمية الكبرى لارتباط المقاصد الشرعية بأصول الفقه، حتى يتم تطويرهما في نفس الإطار، ذلك أنه إذا كانت القواعد الأصولية تعتبر وسيلة لاستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية فإن مقاصد الشريعة تعتبر جزءا مكملا لتلك القواعد الأصولية في عملية الإجتهاد، مع امتياز تلك المقاصد بكونها هي نفسها نمثل فقها في الدين ومعرفة بالنظام الذي تقوم عليه الشريعة.